مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (١٢)، العدد (٢)، ص ص ٩٩٥-١٠٦٩، (ربيع ثاني ١٤٤٠هـ/ ديسمبر ٢٠١٨)

الوزير العباسي أبو المظفر عبيدالله بن يونس البغدادي (ت٥٩٣هـ/١١٩٧م)

د. بدر بن ذعار الحربي
أستاذ مساعد، قسم التاريخ والحضارة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث. يتناول هذا البحث سيرة رجل استطاع التدرج في الوظائف حتى وصل إلى أرقى درجة في السلم الإداري، والسياسي، والفكري في الدولة العباسية، وهو الوزير أبو المظفر جلال الدين عبيد الله بن يونس بن أحمد الأزجي البغدادي الحنبلي، أحد أبرز وزراء الخلافة العباسية خلال القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، لما أظهره من حنكة، ومقدرة في إدارة شؤون العراق، ومساندة الخلافة في استرداد هيبتها.

ومما شجعني على الكتابة في هذا الموضوع أن هذه الشخصية لم تنل الاهتمام والدراسة من قبل الباحثين، فجاءت هذه المحاولة لتسليط الضوء على جوانب من سيرته، وإعطائها مما تستحق من الدراسة، والبحث لأدائها المتميز في إدارة دفة الحكم في مختلف الميادين، ومواقع المسؤولية في ظروف التحديات الصعبة التي تواجه العراق والخلافة العباسية.

واقتضت طبيعة المادة العلمية تقسيم البحث إلى عدة محاور، منها: حياته الشخصية، والمناصب الإدارية التي تقلدها في الدولة، ودوره في الحياة السياسية، وأثره في تنشيط الحياة العلمية، ثم مناقشة وفاته وأسبابها، وأخيراً تقويم لشخصية.

الكلمات المفتاحية: الوزير ابن يونس –عبيدالله بن يونس – وزراء الخلافة العباسية – وزير الخليفة الناصر لدين الله.

المحور الأول: حياته الشخصية

- **اسمه ونسبه:**

هو عبيد الله بن أبي منصور يونس بن أبي المعالي أحمد بن عبيد الله بن هبة الله الأزجي البغدادي[(١)]، الحنبلي الفرضي[(٢)]، ويكنى بأبي المظفر[(٣)]، ويلقب بـــ"جلال الدين"[(٤)]، ويشتهر عند المؤرخين بابن يونس.

أما تاريخ مولده، ومكانه، فمن المؤسف أن المصادر المتوافرة لدينا لا تسعفنا بمعلومات عن ذلك، ولكن يبدو أنه ولد في بغداد، لأنه ينسب لهذه المدينة.

ويرد في سلسلة نسبه (الأزجي، البغدادي)، والأزجي نسبة إلى محلة في مدينة بغداد، تعرف بباب الأزج، يقول ياقوت عنها: " محلة كبيرة، ذات أسواق كثيرة، تقع في الجانب الشرقي من بغداد، وفيها عدة محال، كل واحدة منها تشبه أن تكون

---

(١) ابن الدبيثي، أبو عبدالله محمد بن سعيد (ت٦٣٧هـ/١٢٤٠م): ذيل تاريخ مدينة السلام، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ٣/ ٥٥٠؛ ابن النجار، محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م): ذيل تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ١٧/ ١١٨؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمرى، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٤٢/ ١٣٦؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ١٩/ ٢٧٧؛ ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٣): ذيل طبقات الحنابلة، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م، ٢/ ٤٣٥.

(٢) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٥١٣.

(٣) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٢/ ١٣٦.

(٤) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ٢١/ ٣٠٠.

مدينة"[٥]، ولذلك يقول عنه ابن النجار: "من أهل باب الأزج"[٦]، وهذا مما يؤكد على أنه يعود في جذوره التاريخية إلى مدينة بغداد.

كما يرد في نسبه (الحنبلي، الفرضي)، والحنبلي نسبة لمذهبه كونه أحد علماء الحنابلة، وأما الفرضي، فهي نسبة إلى علم الفرائض، حيث اشتهر أبو المظفر بهذا العلم[٧]، بينما يذكر أبوشامة في نسبه (الجيلي)[٨]، والجيلي نسبة إلى بلاد جيلان[٩]، لكنه ينفرد في هذا القول، فلعله التبس عليه الأمر، لأن المترجم له قبل ابن يونس في كتاب الذيل كان من أهل جيلان.

---

(٥) معجم البلدان، بيروت، دار الفكر، (د.ت)، ١٦٨/١.

(٦) ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨.

(٧) السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد التميمي(ت٥٦٢هـ/١١٦٧م): الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ١٠/ ١٨٣؛ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م): اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت، دار صادر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ٢/ ٤٢٢.علم الفرائض: ويسمى علم المواريث، وهو علم يعرف به من يرث ومن لا يرث ومقدار ما لكل وارث(إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، تركيا، المكتبة الإسلامية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ٢/ ١٢٤).

(٨) تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، بيروت، دار الجيل، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص١٢.

(٩) وهي بلاد وراء طبرستان، فيقال لمن ينسب لها: جيلي، وجيلاني، والعجم يقولون: كيلي، وكيلاني (ياقوت: معجم البلدان، ٢٠١/٢) تقع بلاد جيلان حالياً في القسم الشمالي من دولة إيران (الموسوعة الحرة، http://ar.wikipedia.org).

ومع أن المصادر التي بين أيدينا تغفل الحديث عن أصل، ونسب أبي المظفر، وتكتفي بالتأكيد على أنه أزجي من أهل بغداد، إلا أن الأيوبي[١٠] ينفرد بتفصيلات مهمة عن الخلفية التاريخية عن نسبه، فيذكر أن نسبه ينتهي إلى الصحابي حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، حيث يقول: " وذكر ابن يونس أن لهم بحذيفة وصلة نسب"[١١].

وهذا يعنى أنه ينحدر من أصول عربية؛ لأن حذيفة من بني عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان، حليف لبني عبد الأشهل من الأنصار[١٢].

مهما يكن من أمر، فتظل المعلومات التاريخية عن أصل، ونسب أبو المظفر شحيحة، وقليلة، ويعزى ذلك إلى أن أجداده كانوا من أهل العلم المغمورين.

- نشأته وأسرته:

نشأ أبو المظفر في بغداد حاضرة الخلافة العباسية، حيث يوجد كبار العلماء، والشيوخ، والمدارس، والمعاهد العلمية المتعددة، والدواوين، ومؤسسات الدولة؛ لأن بغداد كانت دائماً مشرعة الأبواب للطامحين من أهل السياسة، والاقتصاد، وكانت كعبة للعلم والعلماء، وملتقى لطلاب العلم، والمعرفة، وقد استفاد أبو المظفر

---

(١٠) هو أبو المعالي محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، الملك المنصور صاحب حماة، وكانت دولته ثلاثين سنة، وكان شجاعاً، محباً للعلماء، يقربهم، ويعطيهم، سمع من شيوخ عصره مع عم أبيه صلاح الدين، صنف كتاب مضمار الحقائق نحو عشرين مجلدة، وكان في خدمته ما يناهز مائتي عالم من الفقهاء، والأدباء، والنحاة، وكان كثير المطالعة، والبحث، توفي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٢/ ١٤٦؛ خير الدين محمود الزركلي: الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ٣١٣/٦).

(١١) مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ١٧٠.

(١٢) هو حذيفة بن حسل بن جابر بن عمرو بن ربيعة بن جروة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس العبسي القطيعي (ابن عبدالبر: أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ١/ ٣٣٤).

من ذلك، فاشتغل بالعلم، وجالس العلماء، وكان أول من تعلم على أيديهم من أهل بيته.

فقد ترعرع أبو المظفر في بيت علم، حيث ظل أهله يتوارثون العلم، حتى وصفهم ابن الدبيثي بأنهم "من بيت أهل عدالة، ورواية"(١٣).

فوالده هو يونس بن أحمد بن عبيد الله بن هبة الله، كنيته أبو منصور، كان متديناً، حسن الطريقة، سمع هبة الله بن الحصين، وأبا منصور القزاز، وغيرهما، وروى الحديث، وعمل وكيلاً لأم الخليفة الناصر لدين الله(١٤)، وكان ذا صدقات وأفضال على العلماء، وحج في آخر عمره، ثم عاد ولزم بيته(١٥)، توفي في ذي القعدة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م(١٦)، وشيعه الأعيان، ودفن بالمدائن إلى جانب قبر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه(١٧).

---

(١٣) ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠.

(١٤) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٥/ ١٣٢.أم الخليفة الناصر لدين الله: هي زمرد خاتون، التركية الجهة المعظمة، عاشت في خلافة ابنها أربعا وعشرين سنة، وحجت، ووقفت المدارس والربط والجوامع، توفيت عام ٥٩٩هـ/١٢٠٤م، وحزن عليها الخليفة وشيعها الأكابر، وعمل عزاؤها شهرا (الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ١٦٧)

(١٥) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٥؛ ابن مفلح: برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله (ت٨٨٣هـ/١٤٧٩م): المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: عبد الرحمن سليمان العثيمين، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ٢/ ٧٥.

(١٦) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٥/ ١٣٢؛الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤١/ ١٣٢.

(١٧) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٥؛ ابن مفلح: المقصد الأرشد، ٢/ ٧٥. وفي عام٥٨٠هـ/١١٨٤م مات الشيخ يونس وكان موته في الدار التي برأس درب الدواب، واجتمع له الناس لأجل ولده، وفتح له جامع القصر، وحضر أرباب الدولة للصلاة على جنازته، وحمل إلى قبر سلمان الفارسي بالمدائن، فدفنوه هناك على حذيفة بن اليمان (الأيوبي: مضمار الحقائق، ص١٧٠).

وأخوه هو علي بن يونس، وكان الأخ الأصغر[١٨]، ويلقب بـ "الأجل، عماد الدين"، ويكنى بأبي الحسن، سمع مع أخيه من شيوخ عصره، وحدث بالكثير[١٩]، وقد كتب عنه ابن النجار شيئاً يسيراً، وكان متديناً كثير العبادة، صالحاً، جميل الطريقة، توفي في ذي الحجة سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م[٢٠].

وأخته هي فاطمة بنت يونس، تلقب بست النعم، [٢١]وكانت عالمة، فقد أجاز لها شيوخ عصرها، وكُتب عنها، وروت بالإجازة، توفيت عام ٦١٤هـ/١٢١٧م.[٢٢]

وعمه أبو المعمر يحيى بن أحمد بن عبيد الله بن هبة الله، يوصف بأنه من أهل العلم والرواية، توفي عام ٥٩٥هـ/١١٥٩م[٢٣]، وله أبناء من أهل العلم، وهم: أبو محمد عبدالمنعم بن يحيى، له اهتمام برواية العلم، توفي في ذي القعدة سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٥م[٢٤]، وأبو المعالي أحمد بن يحيى، قال ابن النجار: كتبت عنه، وكان

---

(١٨) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٩/ ٢١١.

(١٩) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٥/ ٢٠٢.

(٢٠) ذيل تاريخ بغداد، ١٩/ ٢١١.

(٢١) وكان هذا الاسم شائعا في ذلك الزمان، فهناك اكثر من واحدة تسمى بهذا الاسم، ولعل سبب التسمية لكثرة مالها وعطائها.

(٢٢) فقد أجاز لها أبو الوقت السجزي، وكتب عنها أبو الحسن القطيعي، وروت بالإجازة عن أبي الحسن بن غبرة (الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٣/ ٤١٧، ٤٥/ ٢٠٦).

(٢٣) المنذري، زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبدالقوي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م): التكملة لوفيات النقلة، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ٣/ ١٢٩.

(٢٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ١٢١.

صدوقاً، حسن الطريقة، توفي عام ٦٠٣هـ/١٢٠٧م[٢٥]، وأبو بكر زيد بن يحيى، سمع من علماء عصره، توفي عام ٦٢١هـ/١٢٢٤م[٢٦].

- **الوضع الاقتصادي لأسرته وأثره على حياته:**

لقد كانت الأحوال المادية لوالده ـ يونس ـ سيئة، لكن لم تلبث أن تبدلت إلى الأحسن بمرور الوقت حتى أصبح في حالة جيدة، حيث أصبح موسراً، وخلف له مالاً يستعين به في حياته، ويوضح ذلك قول الأيوبي: " وكان مخمول الذكر، فلم يزل على ذلك حتى حصل مالاً، وثروة حدوداً من عشرين ألف دينار"[٢٧]، ولعل هذا التحول المادي بسبب قربه من أم الخليفة الناصر لدين الله.

ولاشك أن هذا الوضع المادي أثر في حياة ابنه عبيد الله، حيث عاش في بيئة ذات دخل جيد، لا يحتاج معه إلى عناء، وتعب لكسب العيش، فتفرغ في بداية حياته لطلب العلم، وتحصيله.

ثم بعد ذلك استطاع عبيد الله أن يزيد من تحسين وضعه المادي بفضل العلم، والقرب من أصحاب النفوذ، والعمل في مناصب الدولة، حيث أصبح يحصل على المرتبات العالية نظير عمله في المناصب الإدارية المهمة، مثل الوكالة، والأشراف، والوزارة، والأستاذ دارية، وغيرها، [٢٨]بالإضافة إلى المكافآت والأعطيات التي تصله من الخلفاء العباسيين، خاصة المقربين منهم.

---

(٢٥) نقلاً عن (الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٣/ ١٠٨).

(٢٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٥/ ٦٠.

(٢٧) مضمار الحقائق، ص ٨١.

(٢٨) سيرد ذكرها فيما بعد.

ومما يظهر مدى تحسن وضعه المادي أنه بعد أن كان يسكن بباب الأزج في الجانب الشرقي من بغداد[٢٩]، أصبح بعد تقلده الوزارة يسكن في الدار المجاورة للديوان في دار الخلافة[٣٠]، وصار يداخل الكبراء كما يقول الذهبي[٣١].

ولكن لأن دوام الحال من المحال، فلم يستمر أبو المظفر على وضع مادي واحد، فقد تعرض إلى محن، ونكبات اقتصادية، أدت إلى تدهور حالته المادية، حيث إن مشاركته في الأحداث السياسية في الدولة، كان له تأثير سلبي على وضعه المادي، فقد نالته محنة في آخر عمره، أدت إلى مصادرة أمواله، ثم حبسه حتى مات.

المحور الثاني: مشاركته في الحياة الإدارية

ونظرًا لما يتمتع به ابن يونس من ثقافة واسعة، واطلاع، وكفاءة علمية، فقد مهدت الطريق أمامه لدخول دواوين الدولة، حيث كان انخراطه في الوظائف الحكومية فرصة لاستثمار قدراته، وتحقيق طموحاته.

---

(٢٩) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٧. ويذكر الأيوبي أن يونس مات في الدار التي برأس درب الدواب (مضمار الحقائق، ص١٧٠) ويقع أيضاً بالجانب الشرقي من بغداد، وهذا يوضح مدى الرخاء المادي ليونس بعد ذلك، حيث صار يملك أكثر من دار، ولكن سكن الأسرة الأساسي في باب الازج.

(٣٠) الفوطي، أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشيباني الحنبلي(ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق: مهدي النجم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٢٣. ويظهر لي أن هذه الدار لم تكن مسكناً خاصاً له، بل هي تختص بأصحاب الوظائف. دار الخلافة: هي المحصورة بسور، يشكل مع نهر دجلة نصف دائرة، وتقدر مساحته بثلث بغداد، وتحيط به دور العامة، وتقع في الجانب الشرقي (ياقوت: معجم البلدان، ٣/٢٥٥).

(٣١) سير أعلام النبلاء، ٢١/٣٠٠.

وقد شارك ابن يونس في الحياة الإدارية، فيذكر أبو الحسن بن القطيعي أنه تنقل في الولايات حتى ولاه الخليفة الوزارة[٣٢]، كما يشير الذهبي أنه داخل الكبراء، إلى أن رتب وكيلاً لوالدة الخليفة، ثم ترقى أمره، وعظم قدره، إلى إن ولي الوزارة للناصر لدين الله[٣٣].

والواقع أن ابن يونس لم يعمل في الوظائف الإدارية التي يغلب عليها الصفة الدينية، مثل القضاء، والإمامة والخطابة ـ مع أنه من علماء عصره ـ سوى وظيفة واحدة هي الشهادة، بل عمل في الوظائف ذات الصبغة الإدارية البحتة، مثل الوزارة، والأستاذ دراية، والإشراف على المخزن، وغيرها.

– الشهادة:

ظهر في النظام القضائي العباسي نظام قضائي فريد، وهو قيام هيئة من الشهود العدول، لم يكن لغيرهم حق الشهادة في مجلس القضاء، ينتقون بعد عملية تحر دقيق، تثبت أسماؤهم في نهايتها في قائمة لدى القاضي، حتى صارت كلمة الشاهد يقصد بها هذا الشخص المسجل في القائمة[٣٤]، وكان من حق القاضي تصفح الشهود، واستيفاء العلم، والخبرة فيهم بالعدالة، والجرح ؛ ليحصل له الوثوق بهم[٣٥].

---

(٣٢) نقلاً عن ابن رجب(ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٦). والقطيعي: هو أبو الحسن محمد بن أحمد القطيعي الشيخ، العالم، المحدث، المؤرخ، المعمر، مسند العراق، وقد لزم أبا الفرج ابن الجوزي، وقرأ عليه كثيراً، وأخذ عنه الوعظ، وجمع ذيل التاريخ لبغداد، لكنه لم يتمه، وخدم في بعض الجهات، وحدث باليسير، وطال عمره، وعلا سنده، واشتهر ذكره، فأعطي مشيخة المستنصرية، ويذكر أن له أصولاً يروي منها، وتوفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م(الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٣/ ٨؛ الزركلي: الأعلام، ٥/ ٣٢١)

(٣٣) سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٠.

(٣٤) المنذري: التكملة لوفيات النقلة، ٥٢/٣.

(٣٥) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي(ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): مقدمه ابن خلدون، بيروت، دار القلم، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص٢٢١. للمزيد من المعلومات عن الشهود العدول، فضلاً انظر: بدري محمد فهد: الشهود العدول، بغداد، مجلة كلية الشريعة، العدد ٣، عام ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

وقد شهد ابن يونس عند قاضي القضاة أبي الحسن علي بن أحمد الدامغاني[٣٦] في ولايته الثانية لقضاء القضاة، عشية يوم الأربعاء حادي عشر ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م[٣٧]، وزكاه القاضي أبو جعفر محمد بن عبد الواحد[٣٨]، والخطيب أبو جعفر هارون بن محمد[٣٩]، ولهذا يعد ابن يونس أول شاهد شهد في خلافة الإمام الناصر لدين الله[٤٠].

(٣٦) هو أبو الحسن علي بن أحمد الدامغاني، كان شيخاً مهيباً، فاضلاً، عالماً، عفيفاً، نزهاً، كامل العقل، جميل السيرة، محمود الفعال، حسن المعرفة بالقضايا والأحكام، تولى منصب قاضي القضاة، وخلع عليه بالديوان سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م، فلم يزل على ذلك حتى عزل سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، فكانت مدة ولايته إحدى عشرة سنة، وستة أشهر، ثم لزم منزله، واشتغل بالعلم، وفي عام٥٧٠هـ/١١٧٥م استعاد أبو الحسن منصبه، وخلع عليه، فبقي في منصبه إلى حين وفاته عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، فكانت مدة ولايته الثانية حوالي ثلاث عشرة سنة (ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١١٣/١٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١١٠/٢٠؛ ابن أبي الوفاء، عبد القادر بن محمد القرشي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) الجواهر المضية في طبقات الحنفية، كراتشي، مير محمد كتب خانه، ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، ٣٥٠/١).

(٣٧) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨.

(٣٨) هو أبو جعفر محمد بن عبد الواحد بن الصباغ، ولد سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م وتفقه على فقهاء زمانه، وسمع الحديث، ولي القضاء بحريم دار الخلافة، ثم عزل، توفي سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م (ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٤٢٢/١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ٤٧/٤).

(٣٩) هو هارون بن محمد بن عبد الله، أبو جعفر ابن المهتدي بالله، الخطيب العباسي، من بيت خطابة ورياسة، ولي خطابة جامع القصر زمانا، وكان كثير الخشوع في صلاته، بليغ الموعظة، توفي عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م (الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٧٩٣).

(٤٠) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام ٣/ ٥٥٠.

وكان قاضي القضاة أبو الحسن قد توقف في قبول شهادة ابن يونس، فلم يقبلها إلا مكرهاً، حتى صار من شهوده، فلما تولى ابن يونس الوزارة، بعد ذلك كان ممن مشى بين يديه أبو الحسن، فكان يعثر، ويقول: «لعن الله طول العمر»[٤١].

ولهذا يلاحظ أن ابن يونس لم يستمر في العمل بالمؤسسة القضائية، فلم يتقلد القضاء، مع أن الشهادة تؤهل صاحبها لتقلد القضاء، والوصول إلى أعلى منصب قضائي، وهو منصب قاضي القضاة، بل اتجه إلى الوظائف ذات الصبغة الإدارية البحتة، ولعل ذلك بسبب خلافه مع قاضي القضاة أبو الحسن الذي كان يستحوذ هو وأسرته على المؤسسة القضائية خلال تلك المدة.

على أية حال، يمكن تقسيم الوظائف ذات الصبغة الإدارية التي عمل فيها ابن يونس إلى فترتين زمنيتين، وهما:

أ) وظائف الفترة الأولى:

ولا يعرف تاريخ بداية هذه الفترة، ويبدو أنها بعد عمله بالشهادة، وقد استمرت هذه الفترة حتى عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م، وتقلد خلالها أربعاً من الوظائف، وهي: نائب في ديوان الأبنية، ووكالة باب الحجرة الشريفة، والإشراف على ديوان الزمام، ثم منصب الوزارة.

(٤١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٦٧٢؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٦.

- نائب في ديوان الأبنية.

يتولى صاحب هذا الديوان مهمة عمارات، أو إنشاءات الدولة، وترميماتها، ويعين معه عدد من الموظفين الذين يساعدونه[٤٢]، ويعد هذا الديوان من مستحدثات العصر العباسي الأخير؛ حيث لم يرد اسمه قبل ذلك[٤٣].

وقد عمل ابن يونس في هذا الديوان، فكان من أول المناصب الإدارية التي تقلدها بعد الشهادة، حيث يقول ابن الدبيثي: «وقد خدم أولاً بديوان الأبنية المعمور»[٤٤]، ولكن لا يعرف متى تقلد أمر هذا الديوان، كما أنه لم يتقلد الإشراف على الديوان، وانما كان نائباً في الديوان، حيث يشير الأيوبي أن ابن يونس كان نائب

(٤٢) ابن الساعي، علي بن أنجب بن عثمان البغدادي الشافعي (٦٧٤هـ/١٢٧٥م): الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، الجزء التاسع، تحقيق: مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م، - المحقق، ص ظ؛ صادق حسن السوداني: الوظائف الإدارية في دولة الناصر لدين الله العباسي، بغداد، مجلة المورد، العدد (٢)، المجلد(٣)، عام ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص١٠١.

(٤٣) ويسمى ديوان العقار، وكان يشرف عليه أستاذ الدار، ولكن نظرًا لكثرة أعماله بدار الخلافة، فلم يكن يشرف عليه مباشرة، وإنما بواسطة نائب له (بدري محمد فهد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ٥٥٢- ٦٥٦هـ/١١٧٥-١٢٥٨م، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٥٣هـ/ ١٩٧٣م، ص١٦٠).

(٤٤) ذيل تاريخ مدينة السلام، ٥٥٠/٣.

أستاذ الدار ابن الصاحب في ديوان الأبنية المعمورة[٤٥]، ويذكر في موضع آخر أنه جعله نائبه، وحكمه، وصارت الأمور تجري معظمها على يديه[٤٦].

ففي عام٥٨٠هـ/١١٨٤مدخل الخليفة الناصر لدين الله المدرسة النظامية، [٤٧] ورأى أنها تحتاج إلى ترميم، فطلب من أستاذ الدار ابن الصاحب أن يعمرها من ديوان الأبنية، ويصرف لها كل ما يحتاج، فتقدم ابن الصاحب إلى ابن يونس أن يتولى عمارتها، وإصلاحها، فأنفذ ابن يونس إليها الصناع، وجميع الآلات، وجميع ما يحتاج إليه، كما رتب فيها جماعة من غلمان ديوان الأبنية، يحثون على العمل، فصرف عليها مبلغًا كبيرًا[٤٨].

ويبدو لي أنه لم يكن لابن يونس التصرف الكامل في أمر الديوان، إلا أنه كان على اطلاع في جميع ما يحصل بالديوان، فعندما ماتت العباسة إحدى جهات المستضيء بأمر الله، وخلفت أموالاً كثيرة، وبيع ما كان لها من جهاز، وأثاث بديوان

---

(٤٥) مضمار الحقائق، ص ١٧٠. ابن الصاحب: هو أبو الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله ابن الصاحب، ولي حجابة باب النوبي، ثم ولاه المستضيء أستاذ دار الخلافة، فلما استخلف الناصر أقره على ذلك، وأدناه، ورد إليه النظر في أكثر الأمور، فعلت منزلته إلى أن قتل في ربيع الأول سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م (ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٥/ ٩٣؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م): المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ الدبيثي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ١٥/٣٦٦).

(٤٦) مضمار الحقائق، ص ٨١.

(٤٧) المدرسة النظامية: أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك الحسن بن علي الطوسي، حيث بدأ بعمارتها في سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م، ثم فتحت في عام٤٥٩هـ/١٠٦٧م لما تكاملت عمارتها (ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، لبنان، دار الثقافة، د.ت، ٣/٢١٨).

(٤٨) الأيوبي: مضمار الحقائق، ص ١٧٠.

الأبنية، كان المتولي لهذه الأموال أستاذ الدار ابن الصاحب، لم يشاركه أحد في ذلك، فيأخذ ما يريد، ويعطي ما يريد، ولكن نائبه في الديوان ابن يونس، يعلم بجميع هذه الحال كما يذكر الأيوبي[٤٩].

على أية حال، فقد استمر ابن يونس في هذا المنصب حتى نهاية عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م، حيث نقل إلى وكالة الباب الشريف[٥٠].

- **وكالة باب الحجرة الشريفة.**

الحجرة الشريفة، موضع بدار الخلافة في بغداد[٥١]، يتولى مهمة الإشراف عليها وكيل، يعرف بوكيل باب الحجرة الشريفة، أو الباب الشريف، وأبرز مهامها لوكالة لأم الخليفة[٥٢]، حيث يوكل له الاهتمام بشؤون أم الخليفة.

وقد رتب أبو المظفر وكيلاً لأم الخليفة الناصر لدين الله بعد وفاة والده في عام٥٨٠هـ/١١٨٤م، والذي كان وكيلها[٥٣]، ويذكر ابن رجب أنه ناب عن والده في

---

(٤٩) مضمار الحقائق، ص ١٢٣.العباسية: هي عمته أو ابنة عمه أو إحدى قريباته الاقربين (الأيوبي: مضمار الحقائق – المحقق، ص ١٢٣).

(٥٠) ورتب مكانه ابن حمدون مشرفًا في ديوان الأبنية (الأيوبي: مضمار الحقائق، ص ١٧٢).

(٥١) الحجرة الشريفة: موضع بدار الخلافة المعظمة ببغداد، حرسها الله تعالى، وهي دار عظيمة الشأن، فيها يخلع على الوزراء، وإليها يحضرون في أيام الموسم للهناء، وأول من أنشأها الإمام المسترشد بالله (ياقوت: معجم البلدان، ١/ ٣٠٧).

(٥٢) ويختلف المؤرخون في تسمية هذا المنصب، فيذكر الأيوبي أنه وكيل بباب الحجرة الشريفة (مضمار الحقائق، ص٨١) كما يذكر في موضع آخر أنه تولى وكالة الباب الشريف (مضمار الحقائق، ص ١٧٢)، بينما يذكر ابن الدبيثي أنه تولى وكالة الباب الشريف لوالدة الإمام الناصر لدين الله (ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠) كما يذكر عدد من المؤرخين أنه رتب وكيلاً لأم الخليفة الناصر (انظر: ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١١٨/١٧؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٢/ ١٣٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧).

(٥٣) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٠؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧.

الوكالة[٥٤]، فلعله ناب عن والده في حياته، ثم بعد وفاته تقلدها، وقد استمر في هذا المنصب حتى عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م.

ولم يقتصر عمله على الاهتمام بشؤون أم الخليفة، فيذكر الأيوبي أنه خلال عمله في وكالة الباب الشريف كانت له مطالعة تعرض بين يدي الدواة الشريفة[٥٥].

وفي سنة٥٨٠هـ/١١٨٤معزمت أم الخليفة الناصر لدين الله على زيارة سامراء، فطلب الخليفة من صاحب المخزن أن يعمل لها ما تحتاج من الإقامة، وتقدم صاحب المخزن إلى ابن يونس الوكيل بباب الحجرة الشريفة أن يستعد للسفر، ويجهز كل ما تحتاج إليه الزيارة من العسكر، والمماليك، وأصناف المأكل والمشرب، والخيام، والخيول، فلما وصل الخليفة، وأمه إلى سامراء، أخذ يفرق كل يوم على الأمراء صناديق الحلوى، وأصناف المأكل، والفاكهة، وأنفق من الأموال حدودًا من عشرين ألف دينار، وابن يونس يتولى ذلك جميعه، ثم عاد الخليفة إلى بغداد، ومن معه من الأصحاب والأمراء، ولكن جماعة من المماليك، والأمراء كانوا يذمون ابن يونس، ويقبحون ذكره، وذلك لأن الخليفة كان يأمره أن يعطي الناس، فكان يعطي قليلاً، حتى إنه رد من صناديق الحلوى، والأطعمة كثيرًا، فعلم الخليفة بذلك، فأنكر عليه، وفرق جميع ذلك على دور الأمراء، والمماليك، وأرباب الدولة[٥٦].

---

(٥٤) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٥.

(٥٥) مضمار الحقائق، ص ١٧٢.

(٥٦) الأيوبي: مضمار الحقائق، ص ١٧٧.

والواقع أن فعل ابن يون سيدل على نزاهته، وحزمه، وحرصه الشديد على محاربة الفساد الإداري، والمالي في الدولة، فقد كان عفيفًا في ولايته، محمودًا في سيرته، محافظًا على أموال الخلافة، وعدم إنفاقها على الأمراء، وأصحاب النفوذ مما ليس في وجوه الإنفاق الصحيحة، ولهذا كانت هذه الشدة، والحزم من أسباب ذمه من قبل أصحاب النفوذ بالدولة.

- **النظر في ديوان الزمام.**

ومهمة صاحب هذا الديوان هي الإشراف على الدواوين الصغيرة المنتشرة في الدولة العباسية، حيث تحفظ فيه السجلات، والوثائق العامة لهذه الدواوين، وكان لصاحب الديوان منزلة رفيعة في الدولة(٥٧).

تولى ابن يونس ديوان الزمام في رجب من عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م(٥٨)، حيث يقول ابن النجار: «ترقت به الحال، فرتب ناظراً في ديوان الزمام(٥٩)، وظل في هذا الديوان حتى تقلد الوزارة عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م، ويذكر ابن الدبيثي أنه لقب بعد هذا المنصب(جلال الدين)(٦٠)، والواقع أن هذا اللقب لم يحصل عليه إلا بعد تقلده الوزارة.

---

(٥٧)وقد استحدثه الخليفة المهدي العباسي عام ١٥٨هـ/٧٧٥م لضبط الدواوين، ويعرف في العصر السلجوقي باسم" ديوان العزيز" (صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، بيروت، دار العلم للملايين، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٣١٦).

(٥٨) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧.

(٥٩) ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨.

(٦٠) ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠.

على أية حال، فقد نال ابن يونس خلال ولايته لهذه المناصب السابقة مكانة عالية، يقول الذهبي: ترقى أمره، وعظم قدره، إلى أن ولي الوزارة للناصر لدين الله[٦١]، ويقول ابن النجار: «ولم تزل السعادة له شاملة إلى أن ولي الوزارة»[٦٢].

ويتضح من سرعة تدرج ابن يونس، وصعوده في سلم الوظائف أن ذلك يدل على حسن أدائه ونزاهته، كما أن عمله في تلك المواقع أكسبه خبرة، ومهارة لتسلم منصب أكثر أهمية، وهو منصب الوزارة.

- **الوزارة.**

تعد الوزارة من المناصب المهمة، والحساسة التي ظهرت في العصر العباسي، حيث لم تتمهد قواعدها، ولم تتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، إذ كان الخلفاء في السابق لهم أتباع، وحاشية، وإذا حدث أمر استشاروهم، ثم استحدث العباسيون الوزارة، وجعلوا لها نظاماً خاصًا لاختيار، وتنصيب الوزير، كما حددوا المهمات التي يتقلدها الوزير[٦٣].

---

(٦١) سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٠.

(٦٢) ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨.

(٦٣) الوزير هو الوسيط بين الملك ورعيته، وهذا يعني أن مهمته حساسة، ويستلزم أن يتصف بصفات تساعده على أداء هذه الأمانة التي قلدها (ابن طباطبا: محمد بن علي بن الطقطقي(ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م) الفخري في الآداب السلطانية، بيروت، دار صادر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص ١٥٢)، وقد مرت الوزارة خلال العصر العباسي بمراحل مختلفة بين القوة والضعف (للتوسع فضلاً انظر، محمد مسفر الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ٣٣٤-٥٩٠هـ/٩٤٦-١١٩٤م، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

وقد تقلد ابن يونس الوزارة في يوم الجمعة الثاني عشر من شوال سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، حيث استوزر الخليفة الناصر لدين ابن يونس[٦٤]، بعد عزل ابن الداريج عن نيابة الوزارة[٦٥]، حيث استدعى إلى باب الحجرة الشريفة، وخلع عليه خلعة الوزارة بمحضر من سائر الولاة، وأرباب المناصب[٦٦]، وقبل يد الخليفة، وقال له: «قلدتك أمور الرعية، فقدم تقوى الله أمامك»[٦٧]، ولقبه جلال الدين، ومشى أرباب الدولة في ركابه[٦٨].

(٦٤) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م): الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ١٠/ ٤٦؛ ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١١٨/١٧؛ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي(ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م): المختصر في أخبار البشر، مصر، المطبعة الحسينية، د.ت، ٧٤/٣.

(٦٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٦٧٢. ابن الداريج: هو أبو الفتح محمد بن عبد الباقي الشهرياري، يعرف بابن الداريج، تولى الحجابة، ثم ديوان العرض، فلما عزل صدقة بن محمد عن نيابة الوزارة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤متولى النيابة إلى أن عزل في شوال سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، فلزم بيته من غير استخدام إلى أن توفي في جمادى الآخرة من سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م (ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ١/ ٤٤١).

(٦٦) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨.

(٦٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٦٧٢.

(٦٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ٤٦؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ٣/ ٧٤؛ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م): تاريخ ابن الوردي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ٢/ ٩٧؛ العمري: أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي(ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٢٧/ ١٤٣؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م): البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ١٦/ ٥٩٧.

وأقيمت مراسيم متميزة، وجرى احتفال مهيب بمناسبة تقلده الوزارة، «فكانت خلعته[٦٩] قميص أطلس، وفرجية، [٧٠] وعمامة قصب كحلية، وقلد سيفًا محلى، وأعطي مركوبًا من المراكب الخاصة، وكتب له عهدًا، وركب من باب الحجرة الشريفة، ومشى سائر الناس بين يديه إلى الديوان العزيز، وجلس في إيوانه في دست الوزارة، [٧١] وكتب إلى الخدمة الشريفة إنهاء ضمنه الدعاء الجزيل، وشكر ما أنعم عليه، وحضوره بالديوان العزيز، وعرضه على يد حاجب الباب، وبرز جوابه، وقرئ بحضور الجماعة، ونهض إلى الموضع الذي يجلس فيه الوزراء بالديوان العزيز، وصلى الجمعة بالمقصورة، [٧٢] وعاد إلى الديوان، فأقام به إلى آخر النهار، وعاد إلى داره»[٧٣]، ثم رتب له سكن في الدار المجاورة للديوان في دار الخلافة[٧٤].

وعلى الرغم من أن هذه المراسم كانت تتبع في تنصيب الوزراء بشكل عام، إلا أنها أعادت إلى الأذهان صورة الوزراء الأوائل من وزراء العصر العباسي الأول، الذين كانوا يمثلون بحق وزراء السيف والقلم.

---

(٦٩) الخلع: هو مايعطيه الخليفة من المال للحاشية وكبار رجال الدولة العاملين في دار الخلافة بالمناسبات (ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ٥/١٣٠).

(٧٠) الفرجية: ثوب واسع وله كمان واسعان طويلان يتجاوزان أطراف الأصابع قليلا لا تفريج لهما (إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ٢/ ٦٧٩).

(٧١) دست الوزارة: منصبها (إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ٣/ ٢٣٤).

(٧٢) المقصورة: هي مقام الإمام، وقد سميت المقصورة مقصورة لأنها قصرت على الإمام دون الناس (ابن منظور: لسان العرب، ٥/ ١٠٠).

(٧٣) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠.

(٧٤) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٣.الديوان العزيز: هو ديوان الزمام سابقاً، ويقع هذا الديوان وغيره من دووابن الخلافة في ما يسمى بدار الخلافة التي سبق التعريف بها في ص٥.

وقد اجتهد الوزير ابن يونس خلال ولايته بالقيام بواجبه خير قيام، للنهوض بالخلافة العباسية، رغم زحمة الأعباء، وتعدد المسؤوليات، وجسامة التحديات التي كانت تنتظره، وفي مقدمتها التصدي لفساد، وعبث أصحاب النفوذ، وأمراء السلاجقة، وأعوانهم، وإعادة هيبة الخلافة العباسية.

ومما لاشك فيه أن اختياره لمنصب وزير الخلافة العباسية في تلك المرحلة الصعبة، لم يكن محض صدفة، بل جاء بعد تمحيص، وتفكير من قبل الخليفة الذي كان يتابع على ما يبدو أخباره، ونشاطه، ويسمع، ويرى كفاءته، وأمانته، وإخلاصه للخلافة، وحرصه على خدمة العباد والبلاد.

كما كان من جملة أسباب اختياره لمنصب الوزارة، تدرجه الوظيفي، حيث تقلد عدد من الوظائف المهمة، مثل الإشراف على ديوان الأبنية، وديوان الزمام، وكالة الباب الشريف، والتي قربته من الخلفاء العباسيين، وأصحاب النفوذ بالدولة، بالإضافة إلى شخصيته الحازمة، والجادة، وجهوده الإصلاحية في محاربة الفساد الإداري، والمالي.

أيضاً مساعي ابن يونس في التخلص من أستاذ الدار ابن الصاحب، حيث يذكر بعض المؤرخين أنه لم يصل للوزارة إلا بعد الإيقاع بابن الصاحب، بمساعدة من الخليفة الناصر، الذي سهل له المهمة، ثم استوزره[٧٥].

(٧٥) يقول العمري: " ثم أوقع بعد ذلك بابن الصاحب، ثم استوزر جلال الدين بن يونس" (مسالك الأبصار، ٢٤/ ٣٠٣).

ولم يزل ابن يونس على وزارته متصرفاً في ولايته إلى أن خرج بعسكر الخلافة[٧٦] في أوائل صفر سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨مإلى همذان؛[٧٧] لمحاربة السلطان طغري بن أرسلان السلجوقي، [٧٨] لكنه انهزم، ووقع في الأسر، وبذلك انعزل عن الوزارة، وانتهت ولايات الفترة الأولى بهذا العمل العسكري.

ب) وظائف الفترة الثانية:

وتمتد خلال الفترة من ٥٨٥هـ/١١٨٩مإلى٥٩٠هـ/١١٩٤م، حيث تقلد خلالها ابن يونس الإشراف على المخزن، والأستاذ دارية، ويذكر الذهبي أن ابن يونس بعد عودته من الأسر أعيد إلى الوزارة، فبقي مدة، ثم رتب أستاذ دار[٧٩]، والواقع أنهلم يتقلد الوزارة بعد عودته، لأن الخليفة قد استوزر في هذه المدة غيره، وكان هذا الوزير هو أبو المعالي ابن حديدة[٨٠].

---

(٧٦) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥١.

(٧٧) همذان: تقع في إقليم الجبال، وهي مدينة كبيرة منيعة، وأرضها خصبة لوفرة المياه، وغلاتها وافرة (ياقوت: معجم البلدان، ٥/٤١٠) واليوم هي مدينة إيرانية، وعاصمة لمحافظة همدان (الموسوعة الحرة، http: //ar.wikipedia.org).

(٧٨) هو السلطان طغري شاه بن أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، آخر الملوك السلجوقية، وقد خرج على الخليفة الناصر لدين الله، وهزم جيش الخلافة بقيادة الوزير ابن يونس، ثم إنهسار إليه سلطان خوارزم شاه بعساكره، وجرى بينهما على الري قتال، فقتل طغري، وقطع رأسه، وبعث به إلى بغداد وذلك عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م(الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٩٠٨).

(٧٩) المختصر المحتاج إليه، ١٥/ ٢٢٩.

(٨٠) هو أبو المعالي سعيد بن علي بن أحمد بن حديدة، من كرخ سامرا، وسكن بغداد، وكان أحد الموسرين ذوي الجاه والمكانة، تولى الوزارة في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م، ولقب معز الدين، ثم عزل بعد أشهر، وتوفي سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م(الذهبي: المختصر المحتاج اليه، ١٥/١٩٣).

مهما يكن من أمر، فإن ابن يونس لما وصل إلى بغداد في شهر رمضان عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م بقي في داره لم يتقلد أي عمل[٨١] حتى السنة التالية، حيث ولى أمر المخزن المعمور[٨٢].

- **الإشراف على المخزن.**

يعد هذا المنصب أحد أهم المناصب الإدارية في الدولة، ويتولى صاحبه الإشراف على مخزن الخليفة، فهو تابع لديوان بيت المال، إلا أن له داراً خاصة به تقع في الديوان، وتحت إمرته عدد من الموظفين، لكل منهم اختصاصه، وعمله المنوط به[٨٣].

فعندما شاع خبر وصول ابن يونس إلى بغداد، طلبه الخليفة إلى داره، ثم ولاهفي صفر من عام ٥٨٥هـ/١١٨٩مأمر المخزن والديوان[٨٤]، ويذكر ابن الدبيثي أن الخليفة عزل الوزير ابن حديدة يوم السبت السابع عشر من صفر سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، وقلد ابن يونس الإشراف على المخزن المعمور في هذا اليوم، وردت الدواوين كلها إليه، فكان ينظر في المخزن المعمور، وينوب عن ديوان المجلس إلى أن عزل في ذي القعدة من هذه السنة[٨٥].

ويلاحظ خلال ولاية ابن يونس هذه الآتي:

---

(٨١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤١/ ٤٠.

(٨٢) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠ .

(٨٣) الأيوبي: مضمار الحقائق، ٨٥/١. وهو يشبه في الوقت الحاضر وزير المالية، أو الخزينة المركزية (ابن الساعي: الجامع المختصر – المحقق، ص ض).

(٨٤) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٩.

(٨٥) ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠. وانظر: ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧.

١ - لم يطل البقاء في منصبه، فقد استمر حوالى تسعة شهور، ثم عزل، فهل حصل خلاف بينه وبين الخليفة، أو أصحاب النفوذ، هذا ما لا نستطيع معرفته في ظل سكوت المصادر المتوافرة لدينا.

٢ - لم يقتصر على المخزن، بل أوكلت إليه مهام أخرى، وذلك لأن صاحب المخزن كانت له مهام، وصلاحيات واسعة، ومتعددة.

مهما يكن من أمر، فإنه خلال الفترة (٥٨٥ -٥٨٧هـ/١١٨٩ -١١٩١م) لم يشغل ابن يونس أي منصب إداري، حيث لزم بيته، وظل يشتغل في العلم وروايته.

- منصب الأستاذ دارية.

يتولى أستاذ الدار مهمة إدارة شؤون الخلافة، ونفقاتها، وأمور الأسرة العباسية المقصورة على الخليفة، وإخوانه، وأعمامه[٨٦]، ولم يكن يلي هذا المنصب إلا الرجال المشهورون والمعروفون، فكان بعضهم يتمتع بقوة، وسطوة عظيمة، توازي سلطة الوزير[٨٧]، لذا كان من يتقلده يعد من أبرز موظفي الخلافة.

ففي جمادى الآخرة من سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م رتب ابن يونس أستاذًا بالدار العزيزة، وردت إليه الأمور الديوانية كلها، فكان الولاة، وأرباب المناصب يحضرون

(٨٦) القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في كتابة الإنشا، تحقيق: عبد القادر زكار، دمشق، وزارة الثقافة، ١٤٠٠هـ/١٩٨١م، ١/١٧٤؛ ابن الساعي: الجامع المختصر- المحقق، ص (يب). ويعرف الأستاذ ناجي معروف الأستاذ دارية ومتوليها بقوله: "رئاسة ديوان الخليفة، وهو بمثابة رئيس الديوان الملكي، أو القصر الجمهوري"(تاريخ علماء المستنصرية، القاهرة، دار الشعب، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص٣٣٧).

(٨٧) بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي، ص ١٧٥-١٧٧.

عنده، وتنفذ الأمور التي تصدر منه[٨٨]، ويذكر ابن النجار أنه صار كالنائب في الوزارة، يصدر الأمور، وينفذها والناس سامعون له مطيعون[٨٩].

ويشير أحد الباحثين إلى أن الخليفة بعد عزل ابن حديدة عن الوزارة، استناب ابن يونس فيها إلى أن عزله[٩٠]، والواقع أنه لا يستبعد تقلد نيابة الوزارة مضافاً إلى منصب الأستاذ دارية، لأن منصب الوزارة كان شاغراً خلال هذه المدة، كما أن مهام أستاذ الدار قد تمتد للوزارة، وقد يكون هذا الذي جعل الأمر يلتبس على الذهبي، ويتوهم أنه تقلد الوزارة.

على أية حال، فقد استمر ابن يونس على ولايته بالأستاذ دارية إلى رجب سنة ٥٩٠ه/١١٩٤م، فإنه عين أبا الفض لابن القصاب[٩١]بالوزارة في هذا العام، فصرف ابن يونس عما كان يتولاه، وردت الأمور كلها إليه[٩٢]، وبذلك انتهت الفترة الثانية لولايات ابن يونس.

---

(٨٨) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٥/ ٢٢٩؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة ٤٣٩/٢. ويذكر الذهبي أنه رتب في جمادى الأولى من هذا العام بعد عزل علي بن بختيار (تاريخ الإسلام، ٤١/ ٧٤).

(٨٩) ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨. وانظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٠؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ٢٧٧/١٩.

(٩٠) ابن الساعي: الجامع المختصر، المحقق، ص٣٥٤.

(٩١)هو مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن علي بن القصاب، أصله من شيراز، وكان والده يبيع اللحم في بعض أسواق بغداد، فلقب بالقصاب، عمل في خوزستان، ثم قدم بغداد، وتولى نيابة الوزارة، ثم خلع علية الخليفة الناصر، وولاه الوزارة (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٢٣/٢١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/١٣؛ الزركلي: الأعلام، ٢٧٩/٦)، سيذكر الحديث عنه فيما بعد.

(٩٢) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٩. ويذكر ابن النجار أنه عزل في رمضان من هذا العام(ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨) وبعد عزل ابن يونس من الاستاذ دارية ولي مكانه تاج الدين أبو الفتح بن رزين (الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤١/ ٩٤)

وهناك بعض المغالطات من قبل بعض المؤرخين تحتاج إلى تصحيح، منها ما يذكره الذهبي من أنه نقل إلى أستاذية دار الخلافة سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م[٩٣]، حيث يفهم من ذلك أنه نقل من منصب لآخر، والحقيقة أنه بعد عزله من المخزن، لزم بيته، ولم يتقلد شيئاً حتى رتب في الأستاذ دارية.

كذلك يشير ابن الدبيثي أنه لما عزل ابن يونس في المرة الأخيرة أقام بمنزله[٩٤]، والحقيقة أنه بعد ولايات الفترة الأولى، عزل، وأقام في منزله، ولكن في ولايات الفترة الثانية لما عزل، سجن حتى مات.

أيضاً يذكر ابن تغري بردي أنه ولى حجابة الديوان، ثم استوزره الخليفة[٩٥]، ولعله التبس عليه الأمر، لأن المصادر المتوافرة لدينا لا تشير إلى أنه تولى الحجابة.

مهما يكن من أمر، فقد أظهر ابن يونس في جميع أعماله الإدارية التي تقلدها في كلا الفترتين أمانة، وقدرة، وكفاية، وصرامة، ونصحًا، وحاول انتشال الخلافة، ومؤسساتها من الفساد الإداري والمالي، والقضاء من أصحاب المصالح الذاتية، وأولئك المتنفذين في مؤسسات الدولة.

---

(٩٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٠٠.

(٩٤) ذكر ذلك ابن رجب (ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٤٠) وعند الرجوع للذيل لابن الدبيثي لا نجد ذلك.

(٩٥) ابن تغري بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٣٨٣هـ/١٩٦٢م، ٦/ ١٤٢.

المحور الثالث: دوره في الحياة السياسية

ولقد أدى اشتغال ابن يونس بالوظائف الإدارية في الدولة إلى اختلاطه بالخلفاء، والوزراء، والقادة، وغيرهم من أصحاب النفوذ السياسي، وأبرز هذه الوظائف منصب الوزير الذي خوله للمشاركة في الحياة السياسية والعسكرية.

ففي أوائل صفر من عام٥٨٤هـ/١١٨٨م أرسل الخليفة الناصر لدين الله الوزير ابن يونس مع عسكر عظيم إلى همذان لمحاربة الخارج بها السلطان طغري بن أرسلان السلجوقي، وطلب من السلطان قز لمساعدته(٩٦)، وكان مع ابن يونس جماعة من أرباب الولايات، والأمراء، والأجناد، والأتباع بأجمل عدة، وعتاد(٩٧)، وقد استناب الخليفة في الوزارة قاضي القضاة أبو طالب علي ابن البخاري(٩٨).

---

(٩٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ٦٢.قزل: هو السلطان أرسلان قزل، واسمه عثمان ابن الملك إلدكز صاحب أذربيجان بعد أخيه البهلوان، ثم تملك همذان، وأصبهان، والري، وقوي على سلطانه طغرل، وأخذه، وحبسه، وسار إلى أصبهان، وصلب جماعة من الشافعية، وخطب لنفسه بالسلطنة، وتمكن، وكانت دولته سبع سنين، ثم قتل غيلة على فراشه سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م(الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩٧/٢١).

(٩٧) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥١.وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٦٢/١٠؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): تاريخه المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ٣/ ٦٥٣؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨.

(٩٨) الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٦٨٥. ابن البخاري: هو أبو طالب علي بن علي بن هبة الله البخاري، البغدادي، الفقيه الشافعي، ولد سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣مولي قضاء القضاة سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م، ثم ناب في الوزارة مع القضاء مدة، وعزل عنها، ثم أعيد إلى قضاء القضاة عام٥٨٩هـ/١١٩٠م، فاستمر يليه حتى توفي سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م (الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٣٨/٤٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ١٥/١٣).

ثم سار جيش الخلافة حتى بلغ موضعًا قريبًا من همذان، فلقيهم السلطان طغري بأصحابه، فجاءه في يوم الخميس الخامس من شهر ربيع الأول من هذه السنة، قبل اجتماعهم بقزل، وعسكره، وجرى بين طغرى وجيش الخلافة قتال على غير استعداد، واختلط الفريقان[٩٩]، وكان الوزير يحرض أصحابه، وكان فيما يقول: «من هاب خاب، ومن أقدم أصاب، ولكل أجل كتاب»[١٠٠]، لكن عسكر الخلافة تفرق، ولم يثبت مع الوزير سوى بعض خاصته، فقبض عليه أصحاب طغري، ونقلوه بما كان معه من ثقل، وأثاث إلى مخيمهم، ثم دخلوا به همذان، وبقي عندهم شهورًا، ثم صار معهم إلى بلاد أذربيجان[١٠١].

ويذكر ابن رجب أن الوزير لما هجم عليه طغرى بعسكره ثبت، وبيده سيف مشهور، ومصحف، فلم يقدموا عليه، حتى أخذ بعض خواص السلطان بعنان دابته، وقادها إلى خيمته، ثم أنزله، وأجلسه، فجاء إليه السلطان في خواصه، ووزيره، فلزم معهم قانون الوزارة، ولم يقم لهم، فعجبوا من فعله، وكلمهم بكلام خشن، وقال لهم: «أمير المؤمنين لما بلغه عبثكم في البلاد، وخروجكم عن الأوامر الشرعية أمر بمجاهدتكم»، فاحترموه، وأكرموه، وبقي

---

(٩٩) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥١. ويذكر ابن الأثير أنهم التقوا في موضع يعرف بداي مرج عند همذان في ثامن ربيع الأول (الكامل في التاريخ، ١٠/ ٦٢) بينما يذكر ابن الدبيثي أنهم التقوا في موضع يعرف بدامرك قريب من همذان في خامس ربيع الأول (ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥١).

(١٠٠) الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٦٨٥.

(١٠١) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٦٨٥.أذربيجان: نسبة إلى باذرباذ بن إيران بن الأسود بن سام بن نوح، ومن أشهر مدنها: تبريز، وهي قصبتها، وأكبر مدنها، وكانت قصبتها قديما المراغة،، وفيه قلاع كثيرة، وخيرات واسعة، وفواكه جمة، وبساتين كثيرة، فتحها المغيرة بن شعبة في سنة عشرين (ياقوت: معجم البلدان، ١/ ١٢٨).

عندهم مدة، وكان في تلك المدة يسرد الصيام، ويديم التهجد، والتلاوة، ويحافظ على الجماعات في الفرائض[١٠٢]، وهذا يوضح لنا مدى قوة شخصية ابن يونس، وصرامتها.

ولكن سبط ابن الجوزي يذكر أن السلطان طغرى لما قبض على ابن يونس لم يحترمه ويكرمه، بل أهانه وأذله، حيث يقول: «أخذ ابن يونس، وكان محلوق الرأس، فأحضر بين يدي السلطان طغرل، فألبسه طرطورًا أحمر فيه خلاخل، وجعل يضحك عليه[١٠٣]، وهو بذلك يخالف غالب المصادر التي أشارت إلى ما يليق به من الاحترام، والتقدير من قبل السلطان السلجوقي.

وقد ظل ابن يونس في الأسر عند السلطان السلجوقي في أذربيجان، ولكنه بعد مدة استطاع الخروج من الأسر، والوصول إلى بغداد، إلا أن المؤرخين يختلفون في طريقة خلاصه من الأسر؟

---

(١٠٢) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٧. وانظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٦٨٥. ويقول ابن الأثير: «ثبت الوزير قائمًا، ومعه مصحف وسيف»(الكامل في التاريخ، ٦٢/١٠).

(١٠٣) سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قزاوعلي التركي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، وقائع سنة ٤٩٥- ٦٥٤هـ/١١٠٢-١٢٥٦م، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م، ٣٢٤/٨.

١ - تخلص منهم بالحيلة، والتخفي، حيث يذكر ابن الدبيثي أنه خلص من أيديهم، فصار إلى الموصل، [١٠٤] ومنها إلى بغداد في خفية[١٠٥]، كما يذكر الذهبي أنه «تسحب فجاء إلى الموصل، ثم إلى بغداد متسترًا، ولزم بيته مدة»[١٠٦].

٢ - تخلص منهم بالتلطف لهم، حيث يذكر ابن رجب أنه تلطف في التخلص منهم، حتى خلص، وسار إلى الموصل، واستطاع أن ينفلت من واليها الذي كان يرد القبض عليه، كما استطاع الخلاص من والي تكريت، [١٠٧] ثم وصل إلى بغداد، فانتقل إلى بعض سفنها، وتنكر، ووصل إلى بيته بباب الأزج[١٠٨].

٣ - أطلق سراحه بوساطة بكتمر[١٠٩] صاحب خلاط[١١٠]، حيث يذكر سبط ابن الجوزي أن الخليفة كتب إلى بكتمر ليطلب ابن يونس من طغرل، وكان

---

(١٠٤) الموصل: مدينة عظيمة مشهورة، ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق، ومفتاح خراسان، سميت بالموصل، لأنها وصلت بين دجلة والفرات، وقيل غير ذلك (ياقوت: معجم البلدان، ٢٢٣/٥)وهي الآن مركز محافظة نينوى، وتقع شمال العراق (الموسوعة الحرة، http: //ar.wikipedia.org).

(١٠٥) ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥١.

(١٠٦) سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٠. ويذكر الذهبي في كتاب آخر أنه خلص من أيديهم، فصار إلى الموصل، وتوجه منها إلى بغداد خفية، ودخل داره(المختصر المحتاج إليه، ١٥/ ٢٢٩).

(١٠٧) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، وهي غربي دجلة (ياقوت: معجم البلدان، ٣٨/٢).

(١٠٨) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٧.

(١٠٩) هو بكتمر صاحب خلاط، كان مملوكاً للملك ظهير الدين شاه أرمن، ثم عظم أمره، واستولى على أرمينية، وكان محارباً للسلطان صلاح الدين، فلما بلغه موته، أمر بضرب البشائر، وسمى نفسه عبد العزيز، وتلقب بالسلطان المعظم صلاح الدين، فما أمهله الله، وقتل غيلة بعد شهر في جمادى الأولى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م(الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٧٧/٢١).

(١١٠) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٠٨/٢٢.

السلطان قزلقد حشد جيشاً، والتقى بطغري على همذان، فانهزم طغري إلى خلاط، [١١١] ومعه ابن يونس، فأنكر عليه بكتمر ما فعله بالوزير، وعسكر الخليفة، فقال له: «هم بدؤوني وبغوا علي»، وطلب منه إطلاق الوزير، وبعث إليه بالخيل والمماليك، فلم يمكنه مخالفته فأطلقه، وأخذ بغلين، فركب ابن يونس بغلًا، وغلامه بغلًا، وسار في زي صوفي، وقدم الموصل، فانحدر في سفينة متنكرًا حتى دخل داره[١١٢].

ويظهر لي أنه لا خلاف بين هذه الأقوال، فهو في البداية أطلق سراحه بشفاعة من بكتمر، ثم بعد ذلك استطاع أن يتخلص من صاحب الموصل، وتكريت، وكل من يحاول القبض عليه من خلال التنكر، والحيلة، والتلطف.

على أية حال، فإنه بعد هروب جيش الخلافة من أرض المعركة، تفرقوا، واختلفت بهم الطرق، وهلك معظمهم، ولم يصل منهم بغداد إلا من عرف الطريق[١١٣]، حيث يقول سبط بن الجوزي: «ولم يرجع إلى بغداد من العسكر إلا القليل، تقطعوا في الجبال، وماتوا جوعًا وعطشًا، وعمل الناس الأشعار فيها»[١١٤].

---

(١١١) خلاط: بلدة عامرة ذات خيرات واسعة، فتحها عياض بن غنم، حيث صالح أهلها على الجزية ومال يؤدونه، وهي قصبة أرمينية الوسطى (ياقوت: معجم البلدان، ٣٨٠/٢) وهى الآن مدينة ومنطقة تاريخية في تركيا(الموسوعة الحرة، http: //ar.wikipedia.org).

(١١٢) مرآة الزمان، ٣٢٤/٨. وانظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٦٨٥. وهناك من يذكر أنه أطلق سراحه دون أن يقدم تفصيلاً لذلك، مثل ابن النجار الذي يقول: «أطلق فتوجه إلى الموصل، ثم جاء إلى بغداد فدخلها مستترًا في شهر رمضان من سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م، وبقي في بيته لا يظهر مدة»(ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨).

(١١٣) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥١.

(١١٤) مرآة الزمان، ٣٢٥/٨.

ومما قيل في هزيمة ابن يونس الأبيات التي قالها أحمد بن الواثق بالله:

بركات الوزير قد شملتنا ... فلهذا أمورنا مستقيمة

خرجت جندنا تريد خراسان ... جميعها بابهات عظيمة

بخيول وعدة ... وسيوف مجربات قديمة

ووزير وطاق طنب ونقش ... وخيول معدة للهزيمة

هم رأوا غرة العدو وقد أقبل ... ولوا وانحل عقد العزيمة

وأتونا ولا يخفى حنين ... بوجوه سود قباح ذميمة

لو رأى صاحب الزمان ولو ... عاين أفعالهم وقبح الجريمة

قابل الكل بالنكال وناهيك ... بها سبة عليهم مقيمة[١١٥]

وهنا نتساءل: ماهي أسباب هزيمة قائد جيش الخلافة الوزير ابن يونس أمام السلطان السلجوقي؟

الملاحظ أن غالب المؤرخين يتحاملون على الوزير ابن يونس، ويضعون اللوم عليه، ويرون أنه سبب هزيمة جيش الخلافة، والحقيقة أننا لا ننكر أن عدم خبرته في الأمور العسكرية كانت أحد أسباب الهزيمة، حيث يذكر السلطان صلاح الدين الأيوبي بأن الوزير غير عارف بالحرب، وقريب العهد بالولاية، ولايراه الأمراء أهلاً

(١١٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٥/١٢؛ الغساني، الملك الأشرف أبو العباس إسماعيل بن العباس(ت٨٠٣هـ/١٤٠١م): العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق: شاكر محمود عبدالمنعم، بغداد، دار البيان، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص٢٠٤.

أن يطاع، ويقابله سلطان شجاع، قد باشر الحرب بنفسه، ومعه من الأمراء من يطيعه[١١٦]، ولكن هناك أسباب أخرى، منها:

١ - أن جيش الخلافة لم يثبت في ساحة القتال، حيث تذكر المصادر أنه تفرق العسكر عن ابن يونس حتى أنه ثبت مع نفر من أصحابه، ووقع في الأسر[١١٧]، ولهذا يقول الذهبي: «فلما ظهر له تقاعس عساكره عن الإقدام، وزلت بهم الأقدام، تأسف على فوت المرام، وثبت في نفر يسير كالأسير، وبيده سيف مشهور، ومصحف منشور، لا يقدم لهيبته أحد عليه، بل ينظرون إليه»[١١٨].

٢ -أن جيش الخلافة لم يكن مستعدًا للقتال، حيث كانت الخطة أن يلتقي جيش الخلافة بالسلطان قزل، وعسكره، ويتوجهون لمقابلة السلطان طغري، ولكن السلطان طغري فاجأهم بأصحابه من دون ان يستعدوا، ولهذا قال ابن الأثير: «فلم يصل قزل إليهم، وأقبل طغرل إليهم في عساكره، واقتتلوا»[١١٩]، ويقول الذهبي: «وفاجأهم، فجرى بينهم مصاف على غير استعداد»[١٢٠]، وقال ابن خلدون: «واعترضهم طغرل على همذان قبل اجتماعهم بكزل، واقتتلوا وانهزمت عساكر ببغداد»[١٢١].

---

(١١٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٤/١٢.

(١١٧) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥١؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٧. يقول ابن الأثير: «فلم يثبت عسكر بغداد، بل انهزموا، وتفرقوا، وثبت الوزير قائماً، ومعه مصحف وسيف» (الكامل في التاريخ، ٦٢/١٠).

(١١٨) تاريخ الإسلام، ١٢/ ٦٨٥.

(١١٩) الكامل في التاريخ، ١٠/ ٦٢.

(١٢٠) المختصر المحتاج اليه، ١٥/ ٢٢٩.

(١٢١) تاريخ ابن خلدون، ٣/ ٦٥٣.

٣ - يذكر الحسيني أن الهزيمة جاءت بفعل خيانة ميسرة عسكر الخلافة التي كان عليها الأمير محمود الأيوبي، ومعه جموع التركمانية والأكراد، فأخل بمقامه مواطأة للسلطان طغرل السلجوقي(١٢٢).

ولهذا يبدو لي أن الأسباب مجتمعة هي التي أدت للهزيمة، وليس سبباً واحداً كما يصوره بعض المؤرخين.

مهما يكن من أمر، فقد دخل الوزير ابن يونس معترك الحياة السياسة، وواجه العديد من الصعوبات، ولم يكن يعلم أن القدر يخبئ له مستقبلاً مغايراً لحياة العلم والعلماء، وهي الحياة السياسية المليئة بالمؤامرات، والدسائس، والصراع على القوى والنفوذ.

- موقفه من الحركات الفكرية المنحرفة:

كان لابن يونس مواقف مشرفة، وجهود عظيمة في مناصرة الفكر السني، والحد من نشاط التيارات الفكرية الباطلة، فقد وقف في وجه حركة الفلاسفة(١٢٣)، وأهل الكلام(١٢٤)، حيث ذم الاشتغال بالفلسفة، وعلم الكلام،

---

(١٢٢) أخبار الدولة السلجوقية، أو زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ص٢٩٤.

(١٢٣) علم الفلسفة: عرف العرب الفلسفة في العصر العباسي الأول، وكان ظهورها مرتبطًا بحركة الترجمة التي لم تكن مجرد ترجمة حرفية للكتب اليونانية، وإنما أضافوا إلى ما ترجم شروحًا وافية، وحاولوا إدخال الفلسفة اليونانية في شرح الدين الإسلامي، ونادوا بضرورة اتفاق العقيدة مع العقل (للمزيد انظر: شفيق أحمد الندوي: أصول الفلسفة وعلم الكلام في ضوء العقيدة الإسلامية، الرياض، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

(١٢٤) علم الكلام: هو علم يسعى لإثبات الحقائق الدينية بإيراد الحجج عليها، ورد الشبه عنها، وموضوعه مسائل العقيدة (طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى (ت٩٦٨هـ/١٥٦١م): مفتاح السعادة ومصباح السادة في موضوعات العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ١٣٢/٢).

ونفر منه، ففي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م اتهم الركن عبد السلام بن عبد الوهاب[١٢٥]، بتهمة الاشتغال بالعلوم العقلية والفلسفية[١٢٦]، واحتواء مكتبته على العديد منها، فبعث الوزير ابن يونس من صادر دار عبد السلام، وأخرج منها كتباً من كتب الفلاسفة، ورسائل إخوان الصفا[١٢٧]، وكتب السحر، وعبادة النجوم، ومخاطبة زحل بالإلهية، وغير ذلك من الكفريات، ثم استدعى ابن يونس العلماء، والفقهاء، والقضاة، والأعيان، وقرأ في بعض الكتب مخاطبة زحل يقول: «أيها الكوكب المضيء المنير، أنت تدبر الأفلاك، وتحيي وتميت، وأنت إلهنا، وفي حق المريخ من هذا الجنس، وعبد السلام حاضر، فقال ابن يونس: هذا خطك، قال: نعم، قال: لم كتبته، قال: لأرده على قائله، ومن يعتقده»، فأمر ابن يونس بإحراق كتبه، وجلس قاضي القضاة والعلماء[١٢٨]، على سطح مسجد مجاور لجامع الخليفة يوم الجمعة، وأضرموا تحت المسجد نارًا

---

(١٢٥) هو الركن أبو منصور عبدالسلام بن عبدالوهاب الجيلي، سمع من أبيه وجده، واشتهر بالأدب والفلسفة، وتولى العديد من الوظائف الإدارية المهمة في الدولة، وقد جرت عليه محنة أدت إلى سجنه، وإحراق كتبه، ومصادرة أملاكه، توفي سنة ٦١١هـ/١٢١٤م (ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ١١٩/٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ٢٦٢/١٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٦٨/١٣).

(١٢٦)ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٦٣/١٠؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ١٣٠/٢؛ الغساني: العسجد المسبوك، ص٣٤٧.

(١٢٧) إخوان الصفا: هي فرقة من المفكرين المبشرين بنزعة فلسفية ثقافية، فيها انحراف وزيغ، تجمع بين المتناقضات، ولهم رسائل ظهرت في القرن الرابع الهجري تضم ألوانًا عديدة من العلوم والمعارف، ولكنها في الحقيقة تفيض بالفكر الباطني (للمزيد انظر: عمر الدسوقي: إخوان الصفا، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م).

(١٢٨) ومنهم أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، وأبو بكر بن المرستانية، وقاضي القضاة أبو الحسن محمد بن جعفر العباسي.

عظيمة، وخرج الناس من الجامع، فوقفوا على طبقاتهم، والكتب على سطح المسجد، وقام أبو بكر بن المرستانية[١٢٩]، فجعل يقرأ كتابًا كتابًا، من مخاطبة الكواكب ونحوها، ويقول: العنوا من كتبها، ومن يعتقدها، فيضج العوام باللعن، ثم حكم بتفسيق عبدالسلام، واقتيد إلى السجن، وبقي فيه مدة، ثم أفرج عنه الخليفة الناصر بعد ذلك[١٣٠].

وكثير من المؤرخين يقدحون في عبد السلام لتعاطيه هذه العلوم، فيقول ابن حجر العسقلاني: «كان مذموم السيرة، منجمًا، يدخل في فلسفة الأوائل، فأحرقت كتبه علانية ببغداد، نسأل الله الستر»[١٣١]، ويقول ابن رجب عنه: «وكان أديبًا، كيسًا، مطبوعًا، عارفًا بالمنطق، والفلسفة، والتنجيم، وغير ذلك من العلوم الرديئة، وبسبب ذلك نسب إلى عقيدة الأوائل»[١٣٢].

---

(١٢٩) هو أبو بكر عبيد الله بن علي بن نصر بن حمزه التميمي البغدادي، المعروف بابن المرستانية، أحد الفضلاء المشهورين، سمع الحديث وجمعه، وكان طبيبًا منجمًا يعرف علوم الأوائل، وأيام الناس، وصنف ديوان الإسلام في تاريخ دار السلام، ورتبه على ثلاثمائة وستين كتابًا، إلا أنه لم يشتهر، توفي سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م (ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٥٥٥/٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٣٥/١٤؛ الزركلي: الأعلام، ١٩٥/٤).

(١٣٠) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ١٥٨/١.

(١٣١) لسان الميزان، تحقيق: دائرة المعارف النظامية بالهند، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٥هـ/١٩٨٦م، ١٥/٤.وقال ابن النجار: «ظهر عليه أشياء بخطه من العزائم، وتبخير الكواكب، ومخاطبتها بالإلهية، وأنها المدبرة للخلق، فأحضر، وأوقف على ذلك، فأقر أنه كتبه معجبًا لا معتقدًا، فأحرق ذلك مع كتب بخطه في الفلسفة» (نقلاً عن: الصفدي: الوافي بالوفيات، ٢٦١/١٨؛ الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م): فوات الوفيات، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ٢٦٢/١).

(١٣٢) ذيل طبقات الحنابلة، ٢١١/١. كما ورد ذلك عند ابن مفلح: المقصد الأرشد، ١٥٦/٢.

وأما بعضهم، فإنه يثني عليه، وعلى العلوم التي يشتغل بها، ومن ذلك المؤرخ ابن القفطي الذي يترجم له فيقول: «قد قرأ علوم الأوائل، وأجادها، واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة، وحصل له بتقدمه حسد من أرباب الشر، فثلبه أحدهم بأنه معطل، فأوقعت الحفظة عليه، وعلى كتبه، فوجد فيها الكثير من علوم الفلاسفة»[١٣٣].

ولهذا فإن هناك من يحاول التشكيك في محاكمة عبدالسلام، والطعن في ابن يونس، والحقيقة أنه لا عبرة بطعن الخصوم من المؤرخين والكتاب الذين يحاولون النيل منه، وإنما العبرة في ذلك ما اتفق عليه جمع كبير من المؤرخين من أهل السنة على صحة المحاكمة[١٣٤].

كذلك من الفرق المنحرفة التي وقف في وجهها، وكشف حقيقتها الرافضة[١٣٥]، - الشيعة - فقد كان ابن يونس ناصرًا لمذهب أهل السنة والجماعة،

---

(١٣٣)أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مصر، مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م، ٢٨٥/١. ويتابعه في هذا الرأي ابن العبري (تاريخ مختصر الدول، بيروت، دار الرائد اللبناني، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ١٤٧/١)، ويقول الحكيم يوسف السبتي الإسرائيلي، وهو أحد الحاضرين محاكمته: «كنت ببغداد يومئذ تاجرًا، وحضرت المحفل، وسمعت كلام ابن المارستانية، وشاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم، وهو يقول: وهذه الداهية الدهياء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء، وبعد إتمام كلامه خرقها وألقاها في النار، فاستدللت على جهله وتعصبه، إذ لم يكن في الهيئة كفر، وإنما هي طريق إلى الإيمان، ومعرفة قدر الله جل وعز فيما أحكمه ودبره» (القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ٢٨٥/١؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ١٤٧/١).

(١٣٤) مثل: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٧٦/٢١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٤٥/١٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٨/٥.

(١٣٥) الرافضة: لقب يطلق على تلك الطائفة ذات الأفكار والآراء الاعتقادية الذين رفضوا خلافة الشيخين، وأكثر الصحابة، وزعموا أن الخلافة في علي بن أبي طالب، وذريته من بعده بنص من النبي صلى الله عليه وسلم، وأن خلافة غيرهم باطلة (غالب عواجي: فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، مصر، دار لينة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٢٠٦).

ولذلك تصدى للفكر الرافضي، وسعى في القضاء على أعيانه مثل أستاذ الدار ابن الصاحب الرافضي، الذي تمكن من عزله من منصبه، إلا أن ابن يونس راح ضحية ذلك الصراع المذهبي، حيث قبض عليه الوزير الرافضي ابن القصاب، وعزله من منصبه بعد أن وشى به عند الخليفة الناصر، وسجنه حتى مات.

ولهذا يرى بعض الباحثين أنه في أيام الخليفة الناصر لدين الله استعاد الرافضة شيئًا من قوتهم، وأصبح لهم حضور في المجتمع البغدادي، واستحوذ بعضهم على مناصب الدولة(١٣٦)، ولذلك اتهم الخليفة بالتشيع، والذي يظهر لي بطلان هذا الاتهام، وأن الخليفة كان يحاول احتواء جميع المذاهب، ويعطى كلاً منهما حقوقه، من أجل الحفاظ على سلطان الخلافة، ومكانتها(١٣٧)، بدليل أن الخليفة عزل ابن الصاحب بتدبير من ابن يونس، ثم قبض على ابن يونس بسعى من ابن القصاب.

كما حذر ابن يونس من التصوف والصوفية الذين يدعون إتباع السنة، وبين قبائح أعمالهم البدعية ونقدهم نقدًا عنيفًا، وفند كثيرًا مما يفعلونه ويقولونه، ولم يكتف بانتقاد عوام الصوفية، وذمهم، بل انتقد كذلك خواصهم، وأعلامهم، كعبد القادر الجيلاني، حيث انتقد طريقته في التصوف.(١٣٨)

---

(١٣٦) فمن أبرز الشيعة في خلافة الناصر، الوزير ابن القصاب، والوزير ناصر ابن مهدي، والوزير ابن العلقمي، وأستاذ الدار ابن الصاحب (محمد صالح القزاز: الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير ٥١٢- ٦٥٦هـ/١١١٨-١٢٥٨م، النجف، مطبعة القضاء، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص١٦٤).

(١٣٧) الحقيقة أن سياسة الناصر لدين الله الدينية، كانت فوق المذاهب والميول والاتجاهات، حيث كانت سياسة توفيقية تهدف إلى تحقيق الانسجام والوحدة بين آراء الفرق والمذاهب المختلفة، فقرب الجميع، وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى اتهامه بالتشيع.

(١٣٨) كما سيتضح ذلك فيما بعد.

- **علاقته بأصحاب النفوذ بالدولة:**

لقد ارتبط أبو المظفر بعلاقات متنوعة مع أصحاب النفوذ بالدولة من وزراء، وأمراء، وقادة، وغيرهم، حتى أنه داخل الكبراء كما يقول الذهبي[١٣٩]، وسوف نشير إلى أبرز هذه العلاقات:

- علاقته بأستاذ الدار أبو الفضل ابن الصاحب:

كان ابن الصاحب من اصحاب النفوذ بالدولة، يقول ابن الأثير عنه: «وهو أستاذ دار الخليفة، والمتحكم في الدولة، ليس للخليفة معه حكم»[١٤٠].

وقد قام ابن الصاحب بتقريب أبي المظفر ووالده - يونس –وولاهم المناصب الإدارية، حيث كان يونس وكيلاً بباب الحجرة الشريفة من جانبه، ثم استخدم أبا المظفر، وجعله نائبًا له في ديوان الأبنية[١٤١]، ويظهر أن العلاقة بينهمافي البداية كانت حسنه حتى ذكر ابن الأثير أن أبا المظفر من أصحاب ابن الصاحب وصنائعه[١٤٢].

ثم ما لبثت العلاقة بعد ذلك أن تبدلت بين الطرفين، فقد سعى أبو المظفر به عند الخليفة الناصر لدين الله، وقبح آثاره حتى قبض عليه الخليفة، وأمر بقتله في ربيع الأول من عام٥٨٣هـ/١١٨٧م[١٤٣]، ولعل ذلك بسبما قام به أستاذ الدار ابن الصاحب عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م عندما عرض أسماء جماعة على الخليفة، لكي يختار

---

(١٣٩) سير أعلام النبلاء، ٢١/٣٠٠

(١٤٠) الكامل في التاريخ، ١٠/ ٤٥. وسبق ترجمته في ص٨.

(١٤١) الأيوبي: مضمار الحقائق، ص ١٧٢.

(١٤٢)الكامل في التاريخ، ١٠/ ٤٥.

(١٤٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ٤٥. كما يذكر ابن خلدون أن ابن يونس لم يزل يسعى في ابن الصاحب عند الناصر حتى أمر بقتله، واستوزره (تاريخه، ٣/ ٦٥٣).

أحدهم للنيابة في الوزارة، فلم يكن من ضمنهم اسم ابن يونس[١٤٤]، ولذلك فإنه بعد مقتل ابن الصاحب تقلد ابن يونس الوزارة.

يضاف إلى ذلك أن الخليفة وابن يونس كان يريدون التخلص من ابن الصاحب، حيث كان يتصرف، ويتحكم بالدولة لدرجة أن الناس قالوا إذا أراد عزل الخليفة فعل، فخافه الناس إضافة إلى الأمراء، وأرباب الدولة[١٤٥]، فيذكر الأيوبي في حوادث عام٥٨٠هـ/١١٨٤مأنه كثر قول ابن يونس في أستاذ الدار ابن الصاحب، وغيره من أصحابه وأعوانه الذين يسيطرون على مقاليد الأمور، ويرون في بقاء ابن الصاحب في منصبه قوة لهم، ولهذا خاف الخليفة من ابن الصاحب وأصحابه، وكان يرى نفسه أنه محجوز عليه، وكان لا يجسر أحد أن يتظاهر إلا بمتابعة أستاذ الدار[١٤٦]، كذلك يجب أن لا يغيب عن أذهننا الاختلاف المذهبي بين الطرفين، كون ابن الصاحب شيعي المذهب.

- علاقته بالوزير أبي الفضل ابن القصاب: [١٤٧]

كان ابن القصاب على علاقة سيئة بابن يونس، فلما تقلد ابن القصاب الوزارة في سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤معزل ابن يونس عن ولايته في الأستاذ دارية، وقبض عليه، واعتقل بداره، فبقي بها معتقلاً إلى أن توفي ابن القصاب في سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م، ثم نقل ابن يونس من دار ابن القصاب إلى دار الخلافة، فحبس في بواطنها إلى توفي في

---

(١٤٤) الأيوبي: مضمار الحقائق، ص٢١٠. فقد عين الخليفة ابن الداريج نائباً للوزارة عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م فجلس في النيابة، حتى عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م (ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ١/ ٤٤١) ولم يكن له سلطة بجانب أستاذ الدار ابن الصاحب.

(١٤٥) ابن الساعي: الجامع المختصر، ص ٦٠.

(١٤٦) مضمار الحقائق، ص ١٧٢.

(١٤٧) سبقت الترجمة له في ص ١٣.

العام التالي[١٤٨]، كما تتبع الوزير ابن القصاب أصحاب ابن يونس، حيث ألقي القبض على أبي بكر بن المارستانية، وأبي الفرج بن الجوزي.[١٤٩]

ويختلف المؤرخون في تفسير المحنة التي تعرض لها ابن يونس على يد الوزير ابن القصاب، ويبدو لي أن تعليلها يعود للتالي:

١ - الثأر لما فعله ابن يونس في محاكمة الركن عبدالسلام بن عبدالوهاب، حيث كان ابن القصاب صديقًا للركن عبدالسلام، ويتفق معه في كثير من توجهاته الفكرية، لذلك فقد قبض ابن القصاب على أصحاب ابن يونس الذين شاركوه في المحاكمة.

٢ - الاختلاف المذهبي بين ابن يونس والوزير ابن القصاب الرافضي، فقد كان لابن يونس مواقف جريئة ضد أهل البدع، وخاصة الشيعة[١٥٠]، ويذكر ابن رجب أن ابن القصاب كان رافضيًا خبيثًا، فسعى في القبض على ابن يونس[١٥١].

٣ - التنافس الإداري بينهما، حيث إن وجود ابن يونس يعد حجرة عثر في طريق ابن القصاب للوصول لمناصب عليا في الدولة، ولابد له من إزاحته من طريقه.

- علاقته بالوزير أبي المعالي ابن حديدة: [١٥٢]

يظهر أن علاقته بابن يونس لم تكن جيدة، فلما وقع ابن يونس في الأسر عند السلطان السلجوقي عام ٥٨٤هـ/١١١٨م، كان الخليفة قد استوزر في هذه المدة ابن

---

(١٤٨) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧.

(١٤٩) سوف نتحدث عن أصحاب ابن يونس عند الحديث عن علاقته بعلماء عصره.

(١٥٠) ويمكن إضافة سبب آخر، وهو التنافس بين العرب والعجم، فالوزير ابن القصاب من العجم وابن يونس من العرب.

(١٥١) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٩.

(١٥٢) سبقت ترجمته في ص ١٢.

حديدة، الذي ما لبث أن بعث إلى أقطار البلاد في إهلاك ابن يونس، حيث طلب من صاحب الموصل، وصاحب تكريت أن يقبضوا عليه، ولكن ابن يونس استطاع أن ينفلت منهما، ويصل إلى بغداد(١٥٣).

ولما علم الخليفة بوصول ابن يونس كتب إلى ابن حديدة يقول: «إين هو ابن يونس؟ فقال: يكون اليوم بتكريت، فقال له الخليفة: بهذه المعرفة تدبر دولتي؟ ابن يونس في بيته»(١٥٤)، ولعل موقفه من ابن يونس من الأسباب التي أدت إلى عزله، حيث إنه بعد مدة عزل الخليفة الوزير ابن حديدة، وولي ابن يونس صدرية المخزن في نفس اليوم، وردت الدواوين كلها إليه(١٥٥)، ويظهر لي أن سبب سوء العلاقة هو خوف ابن حديدة من منافسة ابن يونس له على منصب الوزارة.

- علاقته بأمير الحاج طاشتكين: (١٥٦)

يبدو أن علاقته بابن يونس لم تكن حسنة، ففي حوادث عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م اتهم ابن يونس طاشتكين بأنه يكاتب السلطان صلاح الدين الأيوبي، لقلب الدولة(١٥٧)، ويذكر سبط ابن الجوزي أن سبب تصرفه تجاه طاشتكين يعود إلى الحسد الذي كان يكنه له لما بلغه من النفوذ بعد أن أصبح

---

(١٥٣) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٧.

(١٥٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤١/ ٤٠.

(١٥٥) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠.

(١٥٦) هو طاشكتين بن عبدالله التستري، لقبه مجير الدين، وكان أمير الحاج، فقد حج بالناس أكثر من عشرين حجة، وكان جوادًا شجاعًا سمحًا قليل الكلام، توفي عام ٦٠٢هـ/١٢٠٦م (سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ٨/٥٢٧).

(١٥٧) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ٨/٤١٥؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ٤/٣٥٥. لأنه سرت إشاعة عن صلاح الدين أنه عقد مهادنة مع الفرنج، ويرد الزحف إلى بغداد فأصبح التحدث معه في نظر الخلافة تهمة يعاقب عليها (محمد القزاز: الحياة السياسة في العراق، ص٢٦٩).

يخطب له بمكة بعد الخطبة للخليفة، ناهيك عن إقطاعه الذي يدر مائة ألف دينار سنويًا[١٥٨]، ثم حبس طاشتكين، ولكنه بعد مدة أطلق سراحه، وعاد إلى إمارة الحاج[١٥٩]، والذي يظهر لي أن سبط ابن الجوزي متحامل عليه في أكثر من رواية، ويحط من شأنه[١٦٠].

على أية حال، فقام ابن يونس بدور محوري في الصراع السياسي، ووظف قدراته وإمكاناته، إلا أن الأمور السياسية كانت أكبر منه، لأن العالم وصاحب العلم الشرعي، لا يستطيع مجاراة الساسة، وأصحاب النفوذ، ولايعرف التعامل بالدسائس والمؤامرات.

المحور الرابع: مشاركته في الحياة العلمية

لقد نشأ ابن يونس في طلب العلم، وكان له اهتمام بالعلم والرواية، رغم انشغاله بالأعمال الإدارية والسياسية، حيث يعد من كبار علماء عصره، وترك أثر في الحركة العلمية ببغداد.

- **شيوخه:**

حظي ابن يونس بالتتلمذ، والرواية على عدد كبير من الشيوخ الأفاضل، ولكن بسبب كثرتهم، فإنه يصعب حصرهم، حتى قال ابن العماد الحنبلي: «سمع ممن لا يحصى»[١٦١]، ولهذا سوف نشير إلى أبرز هؤلاء الشيوخ:

---

(١٥٨) مرآة الزمان، ٨/٤١٥. وتابعه في ذلك: أبو شامة: الذيل على الروضتين، ٤/٣٥٥.

(١٥٩) أبوشامة: الذيل على الروضتين، ص٥٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ١٣/٤٩.

(١٦٠) كما سيمر معنا عند الحديث عن تقويم شخصيته.

(١٦١) شذرات الذهب، ٦/ ٥١٣.

١ -أبوحكيم إبراهيم بن دينار النهرواني[١٦٢].

٢ -أبو الفرج صدقة بن الحسين الحداد[١٦٣].

٣ -أبو العلاء الحسن بن أحمد ابن العطار[١٦٤].

٤ -أبو الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي[١٦٥].

---

(١٦٢) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١١٨/١٧. ابن دينار: هو إبراهيم بن دينار بن أحمد، أبو حكيم النهرواني، الفقيه الحنبلي، من علماء بغداد المشهورين بالزهد والورع، والحلم الزائد، وإليه كان المرجع في علم الفرائض، وقد أنشأ مدرسة من ماله بباب الأزج، وانقطع بها للعلم والعمل، وكان يؤثر الخمول، والتواضع، والعيش الخشن، ويقتات من خياطة يده، وكان صبورًا على خدمة الفقراء، توفي عام ٥٥٦هـ/١١٦١م (الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ١٠٩؛ الزركلي: الأعلام، ١/ ٣٨)

(١٦٣) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٥. ابن الحداد: هو صدقة بن الحسين بن الحسن بن بختيار، أبو الفرج ابن الحداد البغدادي، الفقيه الحنبلي، وله معرفة بالفرائض، والحساب، والكلام، وتخرج به جماعة، وكان مليح الخط، نسخ الكثير، وكان ذلك معاشه، وكان يؤم بمسجد، وهو يقيم فيه، توفي عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م (الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٥٢٣؛ الزركلي: الأعلام، ٣/ ٢٠٢)

(١٦٤) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن مفلح: المقصد الأرشد، ٢/ ٧٦.ابن العطار: هو الحسن بن أحمد بن الحسن بن العطار، أبو العلاء الحافظ الهمذاني، سمع الكثير ببلده همذان، ورحل إلى البلدان، وقرأ القراءات الكثيرة بأصبهان، وبغداد، وواسط، وتوفي بمسجده في همذان سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م (ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٧٥؛ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٥/ ١٥٦).

(١٦٥) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨. أبي الوقت: هو عبد الأول بن عيسى بن شعيب، أبو الوقت السجزي، شيخ صالح، حسن السمت والأخلاق، متودد، متواضع، سليم الجانب، قدم بغداد، ونزل رباط البسطامي، وكان صبورًا على القراءة، محبًا للرواية، وحدث بهراة، وكرمان، وأصبهان، وفارس وغيرها، وقعد بين يديه الحفاظ، والوزراء، وسمع عليه من لا يحصى، ولا يحصر، توفي عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م (الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٦٣؛ ابن الدمياطي، أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسيني (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م): المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ٢١/ ١١٣)

٥ -أبو جعفر أحمد بن محمد العباسي[١٦٦].

٦ -أبو يعلى محمد بن محمد ابن الفراء[١٦٧].

٧ -أبو القاسم نصر بن نصر العكبري[١٦٨].

٨ - أبو بكر محمد بن عبيد الله بن الزاغوني[١٦٩].

٩ - أبو منصور مسعود بن عبد الواحد بن الحصين[١٧٠].

---

(١٦٦) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠. العباسي: هو أحمد بن محمد بن عبد العزيز، أبو جعفر العباسي، يعود في نسبه إلى عبد الله بن العباس، وهو نقيب الهاشميين بمكة، ورد بغداد، وحدث بها، وبأصبهان، قال أبو سعد: شيخ، ثقة، صالح، متواضع، ما رأيت في الأشراف مثله، توفي في شعبان عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م(الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٨٠)

(١٦٧) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠. ابن الفراء: هو محمد بن محمد بن الحسين ابن الفراء، الفقيه القاضي، أبو يعلى البغدادي الحنبلي، وكان متدينًا، جميل الطريقة، محمود السيرة، ثقة، صدوقًا، وبرع في المذهب، ودرس، وناظر، وصنف، وكان متشددًا في السنة مناصراً لمذهب، وله تصانيف في مذهبه، منها كتاب كبير في طبقات أصحاب أحمد، توفي عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م(الذهبي: تاريخ الإسلام، ١١/ ٤٥٣؛ الزركلي: الأعلام، ٧/ ٢٣)

(١٦٨) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧. العكبري: هو نصر بن نصر بن علي بن يونس، أبو القاسم العكبري الواعظ، الشافعي، قال ابن السمعاني: شيخ واعظ، متودد، متواضع، وقال ابن الجوزي: كان ظاهر الكياسة، يعظ وعظ المشايخ، ويتخيره الناس لعمل الأعزية، وتوفي في ذي الحجة عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م(الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٥٩؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ٧/ ٣٢٠).

(١٦٩) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧. الزاغوني: هو محمد بن عبيد الله بن نصر بن السري، أبو بكر ابن الزاغوني، البغدادي، شيخ صالح، متدين، مرضي الطريقة، وكان له دكان يجلد فيها، وكان غاية في حسن التجليد، اصطفاه المقتفي لأمر الله لتجليد خزانة كتبه، وتوفي عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م(الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٥٤)

(١٧٠) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨. ابن الحصين: هو مسعود بن عبد الواحد بن محمد بن الحصين، أبو منصور الشيباني، الكاتب، البغدادي، قال ابن السمعاني: كتبت عنه، ولا أعرف من حاله شيئًا، وقرأ القراءات وطلب، وكتب ما لا يوصف، وكان ثقة، وتوفي عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م(الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ١٠٥)

١٠ -أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن البطي[١٧١].

١١ - أبو محمد صالح بن المبارك بن الرخلة الكرخي[١٧٢].

ويقول ابن رجب الحنبلي: «وسمع من غيرهم، واختلف إلى جماعة من العلماء في طلب فنون جمة من العلوم»[١٧٣].

- طلبه للعلم:

لقد ظل ابن يونس معظم سني حياته دؤوبًا في طلب العلم، حريصًا على تحصيله، مجتهدًا في لقاء العلماء، والإفادة منهم، فكان اهتمامه يتركز على طلب العلوم الشرعية، ثم علوم اللغة العربية، ثم بقية العلوم الأخرى.

فقد قرأ القرآن الكريم على شيوخ عصره، وأبرزهم أبو العلاء بن العطار، الذي قرأ عليه بشيء من القراءات[١٧٤]، كما كان شغوفاً بطلب الحديث الشريف، فسمع على جماعة من المحدثين، منهم أبو الوقت السجزي، وأبو جعفر العباسي،

---

(١٧١) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧. ابن البطي: هو محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان، الحاجب أبو الفتح ابن البطي، البغدادي، وكان شيخًا صالحًا، محبًا للرواية، حصل أكثر مسموعاته شراء، ونسخًا، ووقفها، وطال عمره، واشتهر ذكره، وصار أسند شيخ ببغداد في زمانه، وظهر منه خير ومروءة، توفي عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م(ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ١/ ٤٣٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٣٢٦).

(١٧٢) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٩/ ٢١١. ابن الرخلة: هو صالح بن المبارك بن محمد بن عبد الواحد، أبو محمد ابن الرخلة البغدادي، المقرئ، القزاز، الكرخي، وكان شيخًا صالحًا، محبًا للرواية، حريصًا على نشر العلم، وحدث عنه عدد من طلبة العلم، وتوفي في صفر عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م (ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام ٣/ ٣٩٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ٥١٠)

(١٧٣) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٥.

(١٧٤) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/٥٥٠؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧.

وأبو يعلى بن الفراء، وجماعة من طبقتهم[١٧٥]، وتفقه على المذهب الحنبلي على مجموعة من فقهاء عصره، مثل أبي حكيم النهرواني، وأبي الفرج بن الحداد، وغيرهما[١٧٦]، كما تفقه على علماء الشافعية، فسمع من أبي القاسم العكبري، وغيره[١٧٧].

وأما علوم اللغة العربية، فهي لا تقل أهمية في طلبها عنده عن العلوم الشرعية، حيث اتجه ابن يونس لدراسة علوم اللغة والأدب على علماء عصره البارزين، وبرع فيها، كما اهتم بطلب العلوم العقلية ـ علم الكلام، والفلسفة ـ ولكن بضوابطها الشرعية، والعلوم التجريبية ـ علم الطب، والهندسة، والفلك، والحساب، فقد قرأ الأصول، والكلام على أبي الفرج صدقة بن الحسين[١٧٨]، وبرع فيعلم الفرائض، والحساب، والهندسة، والجبر، والمقابلة[١٧٩]، ويقول أبو الحسن القطيعي: «أن الله رزقه حفظ القران، والعلم بالحلال والحرام، الفرائض، والكتاب، والحساب، والعلم بالنحو، والسنة، والأخبار»[١٨٠].

ومما يظهر دأبه في تحصيل العلم حرصه على التلقي عن عدد من العلماء الراسخين، وتنوعه في التتلمذ على عدد من الشيوخ باختلاف علومهم، ومذاهبهم

---

(١٧٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٥

(١٧٦) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٠.

(١٧٧) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨.

(١٧٨) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧

(١٧٩) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/٤٣٥؛ ابن مفلح: المقصد الارشد، ٢/ ٧٦.

(١٨٠) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٦

الفقهية، حتى أنه سمع ممن لا يحصى، كما قال ابن العماد[١٨١]، بل اجتهد في الاشتغال بطلب العلم، والرحلة في سبيله، فيقول ابن رجب: «واختلف إلى جماعة من العلماء في طلب فنون جمة من العلوم»[١٨٢].

ولهذا يلاحظ أن الاهتمام بالتحصيل العلمي لدى ابن يونس لم يقتصر على حقل واحد من حقول المعرفة، بل عمل جاهدًا للإلمام بعدة علوم، لاسيما الشرعية منها، وهذا يتطلب منه المزيد من الدراسة، والجد، والسهر، والانتقال بين مجالس العلماء، والأدباء.

على أية حال، فقد كان لابن يونس همة عالية، واهتمام كبير بالتتبع، والدراسة، فإنه بعد رجوعه من الأسر عام ٥٨٤هـ/١١٨٨ملزم بيته، ولم يزل في هذه المدة يدرس القرآن، ويدارس الفقه، ويتحفظ ما كان نسيه من أنواع العلوم[١٨٣].

- **رحلاته العلمية:**

وبما أن الرحلة تعد مطلباً ضرورياً، ومهماً، وذلك «لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال»[١٨٤]، فقد ارتحل ابن يونس في طلب العلم

---

(١٨١) شذرات الذهب، ٦/ ٥١٣

(١٨٢) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٥.

(١٨٣) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٩

(١٨٤) ابن خلدون: المقدمة، ص٥٤١. للمزيد عن أهمية الرحلة في طلب العلم، وأثرها في حياة العلماء انظر: الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: محمود الطحان، الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ٢/٢٢٣.

إلى همذان[١٨٥]، وسمع من شيوخها، ومن أبرزهم أبو العلاء الحسن بن العطار، وغيره[١٨٦].

ولكن من المؤسف أن المصادر التي بين أيدينا لا تذكر له سوى هذه الرحلة؟ فهل اقتصر على هذه الرحلة، أم رحل لغيرها، خاصة وأنه «سمع ممن لا يحصى» كما يقول ابن العماد[١٨٧].

على أية حال، يظل ابن يونس مقلاً من الرحلة، ولعل ذلك يعود إلى مكانة بغداد العلمية، فهي حاضرة الخلافة العباسية، وملتقى كبار العلماء، وطلاب العلم، وتحوي على عدد من المراكز التعليمية التي تغنى طالب العلم عن السفر لغيرها.

- **جهوده التعلمية:**

وأما نشاط ابن يونس التعليمي، فهو جدير بالدراسة والتأمل، فأنه إلى جانب كثرة أعماله الإدارية وأعبائها الجسيمة التي كلف بها خلال ربع قرن من الزمان، وأشغلته عن ممارسة العلم، والدرس، إلا أنه اهتم برعاية العلم والعلماء، والتشجيع على نشر العلوم، فكان مجلسه حافلاً بالعلماء[١٨٨]، وحدث بشيء من

(١٨٥) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٥؛ ابن مفلح: المقصد الأرشد، ٢/ ٧٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٥١٣

(١٨٦) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٥٠؛ ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧

(١٨٧) شذرات الذهب، ٦/ ٥١٣.

(١٨٨) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/٣٠٤

كتبه، فسمع منه جماعة ممن كان يحضر مجلسه[١٨٩]، كما تتلمذ عليه جماعة لا تحصر من طلبة العلم[١٩٠].

مما يدل على جهوده العلمية أن غالب المصادر التي تناولت شخصيته ذكرت أنه من فقهاء عصره البارزين، قال ابن الجوزي: «كان فقيهًا أصوليًا جدليًا، عالماً بالحساب، والفرائض، والهندسة، والجبر، والمقابلة، وصنف كتابًا في الأصول، وكان يقرأ عليه كل أسبوع، ويحضره جماعة من العلماء»[١٩١]، ويقول ابن النجار: «كان ذكيًا، حسن الفهم، غزير الفضل، له يد حسنة في علم الأصول، ثم يعرف الكلام معرفة جيدة، وقد صنف كتابًا في الأصول ومقالات الناس، فكان يقرأ عليه في داره، ويحضر الفقراء، والفقهاء، والعلماء لسماعه، وكانت له معرفة حسنة بالفرائض، والحساب، وقد حدث بشيء يسير»[١٩٢].

بالإضافة إلى ما سبق، فقد كان للمحاضرات، والدروس التي ألقاها في المساجد أهمية في إغناء المعرفة، حيث استفاد منها الكثير، وأصبحت مصدرًا للمعلومات، اعتمد عليها معاصروه، وجمعوها.

- **نتاجه العلمي:**

بعد أن قضى ابن يونس معظم شبابه، وشطرًا من كهولته في التحصيل العلمي، أصبح يمتلك أفقًا واسعاًفي حقول المعرفة، والعلوم التي حصل عليها، حيث كان لها

---

(١٨٩) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٤٨-٥٥١

(١٩٠) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/٤٣٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٥١٣

(١٩١) نقلاً عن ابن رجب (ذيل طبقات الحنابلة، ٢/٤٤٠). ويقول ابن تغري بردي: "كان إمامًا عالماً في الأصلين، والحساب، والهندسة، والجبر، والمقابلة" (النجوم الزاهرة، ٦/ ١٤٢)

(١٩٢) ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٩.

الأثر الواضح في صقل شخصيته الثقافية، وتعدد مواهبه، وعطائه الفكري، مخلفاً عدد من المؤلفات، منها:

١ -كتاب في أوهام أبي الخطاب الكلوذاني في الفرائض والوصايا[١٩٣].

٢ -كتاب في أصول الدين والمقالات، وحدث به في ولايته للأستاذ دارية، وسمعه منه الفضلاء، ولكنه لم يتم سماعه[١٩٤].

٣ - كتاب في علم الحساب[١٩٥].

٤ - كتاب في علم الكلام[١٩٦].

وهكذا كان لابن يونس جهود قيمة في إثراء المكتبة الإسلامية بهذه المصنفات، والآثار العلمية، ولئن كانت هذه الآثار قد فقدت، وضاعت بفقدانها كنوز عظيمة، إلا أنها تنبئ بحق عما كان له من أثر في ميدان التأليف.

- تلاميذه:

لقد تتلمذ على يد ابن يونس العديد من طلبة العلم، حيث يقول ابن رجب: «سمع منه جماعة لا تحصر»[١٩٧]، ومن أبرز تلاميذه: أبو محمد عبد العزيز بن دلف

---

(١٩٣) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٦؛ ابن مفلح: المقصد الأرشد، ٢/ ٧٦. الكلوذاني: هو محفوظ بن أحمد بن الحسن، الإمام أبو الخطاب الكلوذاني، الأزجي، شيخ الحنابلة، كان مفتيًا، صالحًا، ورعًا، دينًا، وافر العقل، خبيرًا بالمذهب، مصنفًا فيه، حسن العشرة والمجالسة، صنف كتاب الهداية المشهور في المذهب، ورؤوس المسائل، توفي عام ٥١٠هـ/١١١٦م(الذهبي: تاريخ الإسلام، ١١/ ١٤٠)

(١٩٤) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٦؛ ابن مفلح: المقصد الأرشد، ٢/ ٧٦.ويقول ابن الدبيثي: " صنف كتابًا في علم الأصول والكلام، فكان يقرأ عليه أيام ولايته أستاذية الدار العزيزة، ويحضر قراءته الفقهاء والعلماء والأعيان ولم تتم قراءته"(ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/ ٥٤٨).

(١٩٥) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٦.

(١٩٦) ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٣/٥٥١.

(١٩٧) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٦.

الخازن[١٩٨]، وأبو الحسن محمد بن أحمد ابن القطيعي[١٩٩]، وأبو الخير داود بن بندار الجيلي[٢٠٠]، وغيرهم.

- **علاقته بعلماء عصره:**

أما فيما يتعلق بعلاقاته مع علماء عصره البارزين، فإنها لم تكن على وتيرة واحدة، ففي الوقت الذي ارتبطت فيه مع بعضهم بعلاقات طيبة، وودية، كان بعضاً منهم على خلاف معه، وعدم وفاق، ومن أبرز هؤلاء العلماء:

- الشيخ عبد القادر الجيلاني: [٢٠١]

---

(١٩٨) هو عبد العزيز بن دلف، أبو محمد البغدادي المقرئ الناسخ الخازن، وكان عدلاً، ثقة، فاضلاً، صالحاً، كثير التلاوة والصوم والخير والسعي في مصالح الناس والشفاعة لهم، وكان له صورة كبيرة ببغداد، وولي خزانه الكتب المستنصرية، وغيرها، توفي عام ٦٣٧هـ/١٢٤٠م(الذهبي: المختصر المحتاج إليه، ١٥/ ٢٥٤).

(١٩٩) سبق الترجمة له في ص٦.

(٢٠٠) هو داود بن بندار بن إبراهيم، الإمام معين الدين أبو الخير الجيلي، الشافعي الفقيه، قدم بغداد، وتفقه بها على مذهب الشافعي بالمدرسة النظامية، وأعاد لمدرسيها سنين كثيرة، ودرس بالمدرسة البهائية، وأفتى، وناظر، وسمع ببغداد، توفي عام ٦١٨هـ/١٢٢١م(ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٢٥٨/٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ٥٤٢/١٣).

(٢٠١) هو أبو محمد عبدالقادر بن أبي صالح موسى الجيلاني، يكنى بأبي محمد، ويلقب محيي الدين، ولد في جيلان ببلاد فارس عام ٤٧٠هـ/١٠٧٨م ونشأ فيها، ثم رحل لطلب العلم إلى بغداد، فدخلها، واتصل بشيوخ العلم، وتفقه، وسمع الحديث، وبرع في أساليب التدريس، والوعظ حتى أصبح من علماء بغداد البارزين، توفي عام ٥٦١هـ/١١٦٦م (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٥٠/٢٠؛ العليمي، أبو اليمن عبدالرحمن بن محمد المقدسي الحنبلي(ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م): المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، بيروت، دار صادر، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ٢٤٦/٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٢٠١/٤)، ويعد عبدالقادر من أشهر رجال الصوفية في عصره، وبالرغم من المآخذ عليه في التصوف، فإن ذلك لايقلل من مكانته العلمية.

كان ابن يونس على خلاف مع الشيخ عبدالقادر وأبنائه، حيث يقول سبط ابن الجوزي: «قصد أولاد الشيخ عبد القادر، وبدد شملهم، وفعل في حقهم كل قبيح، ونفاهم إلى واسط»[٢٠٢]، ويقول ابن أبي عذيبة: «وأخرب بيت الشيخ عبدالقادر الكيلاني، وشتت أولاده، ويقال إنه بعث في الليل من نبش قبر الشيخ عبدالقادر، ورمى عظامه في دجلة»[٢٠٣]، ويعلل ابن يونس ذلك بقوله: «هذا وقف ما يحل أن يدفن فيه أحد»[٢٠٤]، ويقول ابن تغري بردي: «وما فعله هو بعظام الشيخ أقبح من أن يدفن بعض المسلمين في بعض أوقاف المسلمين، وما ذاك إلا الحسد داخله من الشيخ عبد القادر، وعظم شهرته حتى وقع منه ما وقع»[٢٠٥].

ويذكر ابن رجب أن سبب سوء العلاقة بينهم تعود إلى «أن ابن يونس كان جاراً لأولاد الشيخ عبد القادر، فكانوا يؤذونه غاية الأذى، لما ولي ابن يونس، وتمكن، شتت شملهم، وبعث ببعضهم إلى المطامير بواسط»[٢٠٦].

---

(٢٠٢) مرآة الزمان، ٢٦٤/٨. وواسط: مدينة بين الكوفة والبصرة، بناها الحجاج بن يوسف سنة ٨٤هـ/٧٠٣م، وسميت بذلك لتوسطها بين الكوفة والبصرة والأهواز (ياقوت: معجم البلدان، ٣٤٧/٥)، وهي الآن محافظة تقع وسط العراق (الموسوعة الحرة، http: //ar.wikipedia.org)

(٢٠٣) إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، تحقيق: إحسان ذنون الثامري، ومحمد عبدالله القدحات، عمان، دار ورد الأردنية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص٧٦.

(٢٠٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٦/ ١٤٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٥١٣.

(٢٠٥) النجوم الزاهرة، ٦/ ١٤٢.

(٢٠٦)ذيل طبقات الحنابلة، ١٥٨/١. وقد أشار أبو شامة إلى العداوة القديمة بينهم، وأن ابن يونس كان جارهم، وكانوا يؤذونه حتى أنهم لقبوا كلبًا لهم بجليل، وهو لقب ابن يونس "جلال الدين"(الذيل على الروضتين، ص٥٦).المطمورة: هي السجن والجمع مطامير (إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ٢/ ٤٥٧).

والذي يظهر لي أنه بالإضافة إلى الخلاف الشخصي، فأن الاختلاف في التوجهات الفكرية كان من أهم أسباب سوء العلاقة بينهما، والذي يتمثل في كون الشيخ عبدالقادر من أقطاب الصوفية، وابن يونس من كبار الحنابلة الناقدين للصوفية.

- أبو بكر بن المرستانية: [٢٠٧]

كانت بين أبو بكر وابن يونس صداقة، ومصاحبة، فلما أفضت الوزارة إلى ابن يونس اختص به، وقوي جاهه، وساعده في بناء دار سماها دار العلم، وجعل فيها خزانة كتب، وأوقفها على طلاب العلم[٢٠٨]، كما أصبح من مستشاري ابن يونس، وشارك في محاكمة الركن عبدالسلام، فكان أبو بكر يقرأ كتب الركن كتاباً كتاباً من مخاطبة الكواكب ونحوها، ويقول: «لعنوا من كتبها، ومن يعتقدها»[٢٠٩].

ولكن لقي أبو بكر من صداقته لابن يونس العديد من المحن، فلما قبض الوزير ابن القصاب - وكان رافضياً خبيثاً - على ابن يونس تتبع أصحابه، فقبض على أبي بكر وسجنه مدة[٢١٠].

- أبو الفرج ابن الجوزي: [٢١١]

---

(٢٠٧) أبو بكر بن المرستانية: سبق ترجمته في ص ١٩.

(٢٠٨) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٥٨ ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٥٥٣

(٢٠٩) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٣/ ١٥٤

(٢١٠) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٥٨؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٥٤٣.

(٢١١) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي، التيمي، البغدادي، الفقيه الحنبلي، الواعظ، الملقب جمال الدين الحافظ؛ كان علامة عصره، وإمام وقته في الحديث، وصناعة الوعظ، صنف في فنون عديدة، منها كتاب المنتظم، وصارت له حظوة عند الخلفاء، ورجال الدولة، فارتفع شأنه، وعلت مكانته، توفي عام ٥٩٧هـ/١٢٠١م (ابن خلكان: فيات الأعيان، ٣/ ١٤٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٦٧/٢١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١١٠/١٨).

وقد كان أبو الفرج على علاقة جيدة مع ابن يونس، فلما ولي ابن يونس الوزارة قربه منه، وأخذ بمشورته، وغيره من العلماء في محاكمة الركن عبدالسلام، حيث أحرق كتب عبدالسلام؛ لما فيها من الزندقة، وعبادة النجوم، ورأي الأوائل، كما انتزع الوزير مدرسة الركن عبد السلام، وسلمها إلى ابن الجوزي[٢١٢].

فلما ولي الوزارة ابن القصاب، سعى في القبض على ابن يونس، وتتبع أصحابه، وأجج نار الحقد في قلبه الركن عبد السلام على ابن الجوزي، مشيراً إلى أنه ناصبي، وأنه من أكبر أصحاب ابن يونس، ثم قبض على ابن الجوزي، بعد أن وشى به إلى الخليفة الناصر لدين الله، حيث يقول سبط ابن الجوزي: «إن الوزير استطاع أن يلبس أمره على الخليفة، وساعده في ذلك جماعة من أهل مذهبه»[٢١٣]، وحبس ابن الجوزي في واسط خمس سنين، وقد قارب الثمانين من عمره[٢١٤].

وقد يكون سبب القبض عليه هو الذي ألمح اليه ابن رجب، وهو عدم ميل الخليفة الناصر لدين الله إلى ابن الجوزي، «بل قد قيل إنه كان يقصد أذاه، وقيل إن الشيخ ربما يعرض في مجالسه بذم الناصر، فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام»[٢١٥]، بالإضافة إلى صداقته مع ابن يونس.

على أية حال، فإن غالب علاقات ابن يونس بعلماء عصره تتصف بالتقدير، والاحترام المتبادل، فقد كان ابن يونس يثني على علماء عصره، ومن ذلك أبو الفرج صدقة بن الحسين بن الحداد، وهو أحد شيوخه، فقد تفقه عليه، وقرأ الأصول

---

(٢١٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٧٧/٢١؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ١٧٤/١.

(٢١٣) مرآة الزمان، ٤٣٨/٨.

(٢١٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٧٧/٢١؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ١٧٤/١.

(٢١٥) ذيل طبقات الحنابلة، ٤٢٦/١.

والكلام عليه[٢١٦]، ويذكر ابن رجب أن ابن يونس كان يثني على صدقة، فعندما ورد ذكره في مجلسه، وكان حافلاً بالعلماء، أثنى عليه، وأنكر على ابن الجوزي قدحه فيه، حيث كان ابن الجوزي يطلق القول فيه بفساد المعتقد، ورداءة المذهب[٢١٧].

كما أثنى ابن يونس على أبي بكر محمد بن الحصري[٢١٨]، فقد جرى ذكره يوماً عنده، وكان بمجلسه الفقهاء، والعلماء على اختلاف مذاهبهم، فأثنى عليه خيراً، فاستكثر بعض الحاضرين ذلك الثناء، فقال: «والله لقد كان أدين مني، فإنه كان يصلي بمسجده، ثم يقرأ عليه القرآن والفقه من بكرة إلى وقت الضحى، ثم يدخل إلى منزله، فيتشاغل بالعلم إلى أن يعود إلى مسجده، دائماً لا يقطع زمانه إلا بطاعة»[٢١٩].

ومما تجدر الإشارة إليه، أن قيام ابن يونس بالأعباء الإدارية، والإصلاحية كانت تحتاج إلى جهود عدد كبير من المعاونين المخلصين للنهوض بذلك المشروع الإصلاحي، حيث كان يدقق في اختيار أصحابه من ذوي الكفاءة، والمقدرة الموصوفين بالأمانة، والإخلاص، فقرب إليه خيار الناس، من علماء، وفقهاء، ورفع من مكانتهم، وأكرمهم، وعلى الأرجح كان ابن المرستانية، وابن الجوزي من أبرز مستشاريه، ومساعديه.

---

(٢١٦) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٥؛ ابن مفلح: المقصد الأرشد، ٢/ ٧٦

(٢١٧) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٣٠٤.

(٢١٨) هو أبو بكر محمد بن المبارك بن إسماعيل، ويعرف بابن الحصري، تفقه على مذهب ابن حنبل، وسمع الحديث من جماعة، كان مقيماً في مسجد بباب الأزج، ويؤم فيه الناس في أوقات الصلوات، ثم تولى قضاء قرية في ناحية واسط، وأقام هناك مدة، وعاد إلى بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م (ابن الدبيثي: ذيل تاريخ مدينة السلام، ٢/ ٩١).

(٢١٩) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٢٢٠

- **علاقته بقضاة عصره:**

لقد عمل ابن يونس في المؤسسة القضائية، فكان أول عمل تقلده فيها هو الشهادة، حيث شهد عند قاضي القضاة أبي الحسن علي بن أحمد الدامغاني[٢٢٠] في ولايته الثانية عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م، لكنه لم يقبله إلا مكرهاً، ثم لما استوزر الخليفة الناصر لدين الله ابن يونس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، مشى أرباب المناصب في موكب مراسم تعيينه، وكان منهم أبو الحسن الذي كان يمشي في ذلك اليوم، وهو مكره، ويعثر ويقول: «لعن الله طول العمر»[٢٢١]، ولهذا لم تكن العلاقة بينهما جيدة، ولعل ذلك بسب التنافس العلمي، والعملي، بالإضافة للاختلاف الفقهي، لأن أبا الحسن حنفي المذهب.

ولذلك ترك ابن يونس العمل في المؤسسة القضائية، واتجه للوظائف ذات الصبغة الإدارية البحتة، فعندما تقلد منصب الأستاذ دارية، أصبحت له صلاحيات، فصار يتدخل في السلطة القضائية، ففي عام ٥٨٨هـ/١١٩٢معقد مجلساً قضائياً لقاضي القضاة أبي الحسن محمد بن جعفر العباسي[٢٢٢]، وأحضر القضاة، والعلماء، فأفتوا،

---

(٢٢٠) سبقت الترجمة له في ص٦.

(٢٢١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٣٢٨/١٢؛ ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٦٠/١.

(٢٢٢) هو أبو الحسن محمد بن جعفر بن أحمد بن عبدالعزيز العباسي الهاشمي، الملقب فخر الدين، كان جده أحمد نقيب العباسيين بمكة، وقد تفقه أبو الحسن على علماء عصره، وتولى القضاء، والخطابة بمكة عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م، ثم قلد منصب قاضي القضاة عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م، وشافهه بالولاية الوزير ابن حديدة، ولم يزل على قضائه حتى عزل عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م، فلزم بيته حتى مات عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م (ابن الساعي: الجامع المختصر، ص١٠)

وأثبتوا فسقه لقضية كان قد حكم فيها، ثم عزله[٢٢٣]، كما أنه في نفس العام، عقد محاكمة قضائية للركن عبدالسلام، وسجنه، وأحرق كتبه.

وهذا يوضح لنا مدى قوة ابن يونس، وتدخله في عمل القضاة، ولاشك أن منصب أستاذ الدار هو الذي منحه هذه الصلاحيات.

- **إسهامه في الأعمال الخيرية:**

لقد كان لابن يونس عدد من أعمال الخير، والبر، والصدقات في المجتمع العباسي، فكان يجتمع بالفقراء في داره، ويقدم لهم المأكل، والملبس، ويسعى في قضاء حوائج الناس عامة، والشفاعة لهم عند أصحاب النفوذ[٢٢٤].

ونظراً لأمانة الرجل، وحرصه على فعل الخير، فقد أوكل اليه الخليفة الناصر لدين الله أمر الصدقات التي تخرج من دار الخلافة[٢٢٥]، حيث تعطى هذه المهمة للأشخاص الموثوق بهم ؛ ليوزعوها في وجوهها.

كما أوقف ابن يونس تربه ـ مقبرة ـ في المدائن، فعندما مات والده يونس، حمل إلى المدائن، وبنى على قبره قبة حسنة، وأوقف التربة[٢٢٦] ؛ لكنني لم أعثر لها على أية أخبار أخرى فيما يخص سنة بنائها، ومرافقها، وأوقافها، ومع أن البناء على القبور منتشر في ذلك العصر، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أنتلك بدعة لم يفعلها السلف الصالح، وطريق إلى الشرك، وحذر معظم العلماء منها.

---

(٢٢٣) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٩. والقضية بسبب كتاب أثبته أحد التجار ضد زوجة الوزير ابن حديدة، وكان الكتاب مزوراً (ابن الساعي: الجامع المختصر، ص١٠)

(٢٢٤) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٩.

(٢٢٥) الأيوبي: مضمار الحقائق، ص١٧٧.

(٢٢٦) الأيوبي: مضمار الحقائق، ص ١٧٠.

المحور الخامس: وفاته وتقويم شخصيته

- **سجنه ووفاته:**

كان للمصادر في موت ابن يونس رأي إذا تؤكد أن موته لم يكن طبيعيًا، بل كان بتدبير، ومؤامرة من قبل الخليفة الناصر لدين الله، والوزير أبو الفضل بن القصاب.

ففي عام٥٩٠هـ/١١٩٤م رتب أبو الفضل ابن القصاب وزيراً، فعزل ابن يونس عن ولايته في الأستاذ دارية، وقبض عليه، واعتقل بداره، فبقي بها معتقلاً إلى أن توفي ابن القصاب في سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م، فنقل ابن يونس من دار ابن القصاب إلى دار الخلافة، فحبس في بواطنها(٢٢٧)، ثم أخرج يوم الثلاثاء في سابع عشر صفر سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م ميتاً، ودفن بالسرداب بدار الخلافة(٢٢٨)، بينما يذكر ابن العماد أن ابن القصاب اعتقله في بيت السلاح، وحبسه، ثم أخرج منه ميتاً(٢٢٩)، وهو بذلك يخالف غالب المؤرخين الذين يذكرون أنه اعتقل في دار الخلافة.

وقد تعرض ابن يونس خلال سجنه للأذى، والتعذيب، والتنكيل، حتى ذكر ابن الجوزي أنه «بعد القبض عليه في داره نقل إلى محبس ضنك، وعر بالتاج، وقيل:

---

(٢٢٧) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٠٠/٢١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧.

(٢٢٨)ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١٢٠؛ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٤٠؛ ابن مفلح: المقصد الأرشد، ٢/ ٧٦. والسرداب: حجرة تحت الأرض مرتفعة السقف، ولها متنفس للهواء (إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ١/ ٤٢٦)، وتقع في دار الخلافة.

(٢٢٩) شذرات الذهب، ٥١٣/٦. ويذكر أبو شامة أنه بعد القبض عليه سلم إلى أحمد بن الوزير ابن القصاب، فبقي في داره (الذيل على الروضتين، ص ١٢)

إنه ضيق عليه وقيد»[٢٣٠]، ويقول ابن تغري بردي: «كان موته على أقبح وجه، بعد أن قاسى خطوباً، ومحناً، وحبس سنين، حتى أخرج من الحبس ميتاً؛ وهذا ما وقع له في الدنيا، وأما الأخرى فأمره إلى الله تعالى»[٢٣١].

وهنا قد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: ماهي الأسباب التي أدت إلى القبض على ابن يونس، وحبسه حتى الموت؟

١ -موقف الخليفة الناصر لدين الله منه.

لقد تغير موقف الناصر لدين الله من ابن يونس بعد ولايته للأستاذ دارية، ولعل الخليفة خاف من قوة سلطته، وتحكمه في مقاليد الأمور، وتعدد صلاحياته، وتدخله في السلطة القضائية، بالإضافة إلى مواقفه الحازمة ضد أهل الفرق، والمذاهب المخالفة له، والخليفة الناصر من المعلوم أنه كان يتبع سياسة توفيقية بين أتباع المذاهب المختلفة.

٢ - موقف الوزير أبي الفضل ابن القصاب منه.

كانت العلاقة بينهما سيئة، فيذكر ابن رجب أن ابن القصاب كان رافضياً خبيثاً، وكان الناصر يميل إلى الشيعة، فسعى في القبض على ابن يونس[٢٣٢]، وقد أشرنا آنفاً إلى أسباب سوء العلاقة بينهما، ومن أبرزها الثأر لما فعله ابن يونس بالركن عبد السلام، والتنافس الإداري، والاختلاف المذهبي بينهما.

وهناك أسباب أخرى يشير اليها بعض المؤرخين بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، ولكن الذي يظهر لي أنها لا ترقى أن تكون هي أسباب سجنه، ثم وفاته، وهي كالتالي:

---

(٢٣٠) نقلاً عن ابن رجب (ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٤٠).

(٢٣١) النجوم الزاهرة، ٦/ ١٤٢.

(٢٣٢) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٩.

١ - هزيمته أثناء قيادته جيش الخلافة.

يشار إلى أنه بسبب هزيمة عسكر الخلافة أمام السلطان السلجوقي، فيذكر" ابن القادسي[٢٣٣] أنه لما قبض عليه استفتى عليه أنه كان تسبب إلى كسر عسكر الخليفة، وقتلهم ونهبهم، وأظهر موت الخليفة، وهو حي، فكتب ابن فضلان[٢٣٤] كلاماً مضمونه: إباحة دم من فعل هذا، وكتب ابن الجوزي: أنه يلزمه غرامة ما خان فيه، وتقام عليه السياسة الرادعة"[٢٣٥].

والواقع أنه لم يكن سبب الهزيمة، وإنما هنا كأسباب متعددة، وقد تطرقنا إليها سابقاً، كما أن الخليفة الناصر لم يحاكمه بعد عودته من الأسر عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م، بل أنه قربه منه، وأسند إليه مناصب مهمة، فقد أوكل إليه الإشراف على المخزن، ثم الأستاذ دارية، ورد إليه أمور جميع الدواوين.

٢ - دفاعه عن مذهبه السني والفقهي.

يتصف ابن يونس بأنه كان شديد المدافعة عن منهج أهل السنة والجماعة، ومذهبه الفقهي الحنبلي، ومجابهة التيارات الفكرية الباطلة، فقد فضح أهل الفلسفة، والكلام، وكشف أباطيلهم، فعقد محاكمة للركن عبدالسلام، وأحرق كتبه، كذلك

---

(٢٣٣) هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، أبو عبد الله القادسي الكتبي، وهو منسوب إلى القادسية التي بين سامراء وبغداد، صاحب " التاريخ "، وكان رجلاً فاضلاً، ذا اعتناء بالتواريخ والحوادث، وتوفي عام ٦٣٢هـ/١٢٣٥م (الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٤/ ٨٤)

(٢٣٤) هو جمال الدين أبو القاسم يحيى بن علي بن الفضل البغدادي، الشافعي، المعروف بابن فضلان، كان من أئمة علم الخلاف والجدل والمناظرة، وسمع الحديث، وحدث، وله نظم حسن، وانتفع به الطلبة والفقهاء، وبنيت له مدرسة، فدرس بها، وبعد صيته، توفي عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م (الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٢/ ١٠٥٠؛ الزركلي: الأعلام، ١٥٩/٨).

(٢٣٥) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٤٤٠/٢.ويذكر ابن العماد أنه لما اعتقله الخليفة كتبوا فيه فتاوى أنه كان سبب هزيمة العسكر، فذكروا أشياء، فأفتوا بإباحة دمه (شذرات الذهب، ٦/ ٥١٣).

تصدى للرافضة، ووقف في طريق أعيانهم، مثل ابن الصاحب، وابن القصاب، كما نقد التصوف، وكان على خلاف مع الشيخ عبدالقادر أحد كبار الصوفية.

٣ - الصرامة، والشدة خلال عمله في مناصب الدولة.

تميزت شخصية ابن يونس بالحزم، والقوة، وعدم التلون لأصحاب النفوذ، ومخالفة الأمراء، فكان شديد المحافظة على أموال الدولة، فعندما خرج الخليفة الناصر في إحدى زيارته، وكان ابن يونس يتقلد وكالة الباب الشريف، أوكل اليه الخليفة أمر الأموال، وأصناف المأكل والمشرب، وطلب منه توزيعها على الأمراء، ولكنه كان لا يعطي الناس إلا القليل، حتى إنه رد من صناديق المال والأطعمة كثيراً، ولهذا كان جماعة من المماليك، والأمراء يذمون ابن يونس، ويقبحون ذكره[٢٣٦]، ولاشك أن هؤلاء الأمراء، وأصحاب النفوذ ممن شوه صورة ابن يونس في البلاط العباسي، وعند المجتمع البغدادي.

والواقع أن الوزير ابن يونس كان يعمل جاهداً على المحافظة على أموال الدولة، وضرورة صرفها في قنواتها الصحيحة، فقد عمل بكل أمانة، وإخلاص في مؤسسات الدولة، عندما كان مشرفاً على ديوان الأبنية، ثم ديوان الزمام، واكتسب خبرة وافرة، واطلع على أمور الخلافة، ومؤسساتها عن كثب، وتعرف على جوانب القوة والضعف.

ولذلك عندما تولى الوزارة، ثم الأستاذ دارية، حاول انتشال الخلافة، ومؤسساتها، والقضاء على أصحاب المصالح الذاتية، وأولئك المتنفذين في مؤسسات الدولة، الذين يهمهم أن تبقى الإدارة في حالة الفوضى، والاضطراب؛ ليتسنى لهم الوصول إلى مطامعهم، ولكنه اصطدم بقوة هؤلاء المتنفذين، لأنه لم يكن بقوتهم، وعلاقاتهم.

---

(٢٣٦) الأيوبي: مضمار الحقائق، ص ١٧٧.

- **تقويم شخصيته:**

يختلف المؤرخون في تقويم شخصية ابن يونس بين الثناء والذم، ولهذا سوف نستعرض أقوالهم فيه، ثم نناقشها، للخروج بتصور واضح عن هذه الشخصية.

لقد اجتمعت في ابن يونس عدد من الصفات، والمزايا، والمحاسن الدينية، والخلقية، والسياسية، والإدارية، حتى أثنى عليه مجموعة من المؤرخين، وممن أثنى عليه أبو الحسن القطيعي، والذي بالغ في مدحه، والثناء عليه، حيث يقول: «جمع فيه خصال، الخصلة منهن تكون في الرجل، فيكون من الكاملين، إذ كان الله رزقه حفظ القرآن، والعلم بالحلال والحرام، الفرائض، والكتاب، والحساب، والعلم بالنحو، والسنة، والأخبار، وأعطاه من شرف الأخلاق، وكرم الأعراق، والمجد المؤثل، والرأي المحصل، والفضل، والنجابة، والفهم، والإصابة، والقريحة الصافية، والمعرفة بكل فضل وفضيلة، والسمو إلى كل درجة رفيعة نبيلة من محمود الخصال، والفضل والكمال ما يطول شرحه»[٢٣٧]، وقال ابن الدبيثي عنه: «كان فيه فضل، وحسن سمت ووقار»[٢٣٨]، كما أثنى عليه ابن رجب الحنبلي، وابن مفلح،[٢٣٩] وغيرهم.

وهناك عدد من المؤرخين، ممن أثنوا عليه في الجانب العلمي، ولكنهم ذموه في جوانب أخرى، فابن الجوزي مدحه من الناحية العلمية، ثم قال: «إلا أنه شان أفعاله

---

(٢٣٧) نقلاً عن ابن رجب (ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٦). ويذكر ابن مفلح أن القطيعي بالغ في مدحه، والثناء عليه، وعكس آخرون (المقصد الأرشد، ٢/ ٧٦)

(٢٣٨) ذيل تاريخ مدينة السلام، ٥٤٨/٣. وابن الدبيثي: هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن يحيى الدبيثي، الواسطي الشافعي، رحل في طلب العلم، وكان من المعدلين الأعيان ببغداد، وصنف تاريخاً كبيراً لواسط، وصنف تاريخاً لبغداد ذيل به على الذيل لأبي سعد السمعاني، توفي سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م(ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣٩٤/٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٤٩/١٤؛ الزركلي: الأعلام، ١٣٩/٦).

(٢٣٩) انظر: ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٤٠؛ ابن مفلح: المقصد الأرشد، ٢/ ٧٦.

بسوء أعماله، بأغراضه الفاسدة، والحسد الذي كان معه، والطرائق التي كانت غير مرضية، فأبغضه الناس، وسبوه وكان فيه سودنة، وجنون»[٢٤٠].

كذلك أثنى عليه ابن النجار في الجانب العلمي، ثم قال: «ولم تكن سيرته محمودة في ولايته كلها، ولا طريقته مرضية»[٢٤١]، وابن شهبة في «تاريخ الإسلام» قال بعد أن أثنى عليه: «غير أنهشان فضيلته برأيه الفاسد، وأفعاله السيئة، فإنه خرب بيت الشيخ عبد القادر الكيلاني، وشتت أولاده»[٢٤٢]، ويقول أبو شامة: «غير أنه شان فضله بمقاصده السيئة، ورأيه الفاسد، وحقده، وحسده، وكسر عسكر الخليفة، ومخالفته للأمراء، وخراب بيت عبدالقادر»[٢٤٣].

وقد دافع ابن رجب الحنبلي عنه، وقال: «إن أبا شامة بالغ في ذمه، والحط عليه بأمور لم يقم عليها حجة، وإنما قال: ويقال: إنه فعل كذا، ومثل هذا القدح لا يكفي في مستنده، ويقال كذا، وكذلك ابن القادسي في تاريخه، يذمه كثيراً، وقد ذكر: أنه إذا آباه فصار ذا غرض معه»[٢٤٤].

---

(٢٤٠) نقلاً عن ابن رجب (ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٤٠)، حيث لانجد هذا القول في مؤلفات ابن الجوزي المطبوعة.

(٢٤١) ذيل تاريخ بغداد، ١٧/ ١١٩.

(٢٤٢) نقلاً عن ابن العماد (شذرات الذهب، ٦/ ٥١٣).

(٢٤٣) الذيل على الروضتين، ص١٢. أيضاً الصفدي يذكر أنه له معرفة حسنة بالفرائض والحساب، لكن لم يكن محمود السيرة في كل ولاياته (الوافي بالوفيات، ١٩/ ٢٧٧) كذلك ابن تغري بردي يقول: "كان إماماً عالماً غير أنه شان أمره بأمور فعلها، منها: أنه أخرب بيت الشيخ عبد القادر الجيلانى، وشتت أولاده"(النجوم الزاهرة، ٦/ ١٤٢)

(٢٤٤) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٤٠.أَبُو شَامَة: هو عبد الرحمن بن إسماعيل، أبو القاسم، المقدِسيّ الأصل، الدمشقي، الشّافعي، ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق، وله عدد من المولفات، منها كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، وذيل الروضتين، وقد وقف كتبه ومصنفاته جميعها في الخزانة العادلية بدمشق، فأصابها حريق التهم أكثرها، توفي عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧م (الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٥/ ١١٤؛ الزركلي: الأعلام، ٣/ ٢٩٩).

وهنا لنا أن نتساءل: لماذا يختلف المؤرخون في تقويم شخصية الوزير ابن يونس؟ وماهي أهم المآخذ عليه؟

والواقع أنه كغيره من الوزراء الطموحين، أو العلماء المخلصين، الذين عندما يصل الواحد منهم إلى درجة عالية من المنزلة الاجتماعية، تكثر حوله الوشايات، والأحقاد، وغالب المؤرخين الناقمين عليه غير معاصرين له، مثل ابن النجار، وأبي شامة، وابن شهبة، وينقلون عن غيرهم، كما أن بعضهم يختلف معه في المذهب الفقهي، وممن عاصره ابن الجوزي، وكان أحد أصحابه، ويختلف معه في بعض الأمور.

كما أنه في الوقت نفسه، يجب الحذر من المؤرخين الذين تناولوا حياته، وأخلاقه، وصفاته، وأثنوا عليه، خاصة ممن هم على المذهب الحنبلي، مثل تلميذه أبي الحسن القطيعى، وصديقه أبي الفرج بن الجوزي، وابن رجب الحنبلي، لأنهم بعد أن تولى الوزارة أحد رجال المذهب، فلابد أن يسموه، ويصفوه بالمزايا الحسنة في ظل الصراع المذهبي الذي كان منتشراً في العراق، ولاسيما في بغداد، في القرنين الخامس والسادس الهجريين.

ويلاحظ أن أهم المآخذ على ابن يونس هي: أن سيرته لم تكن محمودة، ولا طريقته مرضيه، وآراءه الفاسدة، وأفعاله السيئة، والحقد والحسد الذي كان معه، وخراب بيت الشيخ عبدالقادر الجيلاني.

والحقيقة أن المتتبع لسيرة ابن يونس يجد أنغالب هذه المآخذ بعد تفنيدها، ومناقشتها ليست كما يصورها بعض المؤرخين، كما أن أراءه، وأفعاله لا تستحق وصفها بالسيئة، كما يقول بعض المؤرخين، بل هي خلافات مع بعض معاصريه، أو

اختلافات في وجهات النظر حول بعض القضايا، قد يكون له اجتهادات فيها، لكنه لم يصب.

مهما يكن من اختلاف المؤرخين في أمر ابن يونس، فإن أجمل ما قيل فيه هو قول ابن النجار بعد أن ذكر أنه لم يكن في ولايته محموداً، قال: «وقد علمت أن الناس لا يجتمعون على حمد شخص ولا ذمه»[٢٤٥].وأخيراً لا نقول في هذه الشخصية الفذة إلا كما قال ابن رجب عنه: «رحمه الله، وسامحه»[٢٤٦].

الخاتمة ونتائج البحث

يمكن أن نسجل أبرز النتائج التي خرجت بها الدراسة، وهي كالآتي:

-يعد الوزير أبو المظفر جلال الدين عبيدالله بن يونس الأزجي البغدادي الحنبلي، أحد أبرز وزراء الخلافة العباسية خلال القرن السادس الهجري.

-تبين لنا كيف استطاع ابن يونس أن يحسن من وضعه المادي بفضل الله ثمبالعلم، والقرب من أصحاب النفوذ بالدولة، والعمل في مناصب الدولة.

-أن ابن يونس لم يعمل في الوظائف التي يغلب عليها الصفة الدينية، مع أنه من علماء عصره، سوى وظيفة واحدة، هي الشهادة، بل تركز عمله في الوظائف ذات الصبغة الإدارية البحتة، مثل الوزارة، والأستاذ دارية، والمخزن، وغيرها.

- يتضح من سرعة تدرج ابن يونس، وصعوده في سلم الوظائف، أن ذلك يدل على حسن أدائه، ونزاهته، فقد شارك في العمل الإداري خلال ربع قرن، فتقلد خلال الفترة الأولى أربعة من الوظائف، وهي: نائب ديوان الأبنية، ووكالة باب

(٢٤٥) نقلاً عن ابن رجب (ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٤٠)

(٢٤٦) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٤٣٩

الحجرة الشريفة، والإشراف على ديوان الزمام، ثم منصب الوزارة، وتقلد خلال الفترة الثانية الإشراف على المخزن، والأستاذ دارية، كما ردت إليه الأمور الديوانية كلها.

- عندما تقلد ابن يونس الوزارة، أقيمت مراسيم متميزة، وجرى احتفال مهيب، وهذه المراسيم تعيد إلى الأذهان صورة الوزراء الأوائل من وزراء العصر العباسي الأول الذين كانوا يمثلون بحق وزراء السيف والقلم.

-تبين أن اختياره لمنصب وزير الخلافة العباسية في تلك المرحلة الصعبة، لم يكن محض صدفة، بل جاء بعد تمحيص، وتفكير من قبل الخليفة الذي كان يتابع على ما يبدو أخباره، ونشاطه، ويسمع، ويرى كفاءته، وأمانته، وإخلاصه للخلافة، وحرصه على خدمة الناس والبلاد.

-كان للوزير ابن يونس صلاحيات عسكريه واسعة، فقد تولى قيادة جيش الخلافة، وأبدى أثناء القتال من الشجاعة ما يعجز عن وصفه، حتى بقي ثابتاً والسيف والمصحف بيده، إلا أن بعض المؤرخين يتحاملون عليه، ويضعون اللوم عليه، ويرون أنه سبب الهزيمة، والحقيقة أننا لا ننكر أن عدم خبرته في الأمور العسكرية كانت أحد أسباب الهزيمة، ولكن هناكأيضاًأسباب أخرى.

- أن ابن يونس خلال عمله في المخزن، والأستاذ دارية لم يقتصر على حدود عمله، بل أوكلت إليه مهام أخرى، وصلاحيات واسعة، وأصبح يتدخل في بعض الأمور الخارجة عن اختصاصه، والواقع أن ذلك بسب التداخل في مهام الوظائف في العصر العباسي الأخير، بالإضافة إلى قوة الخليفة، والشخص الموكل له هذه المهمة.

-لم يكن يعلم الوزير ابن يونس أن القدر يخبئ له مستقبلاً مغايراً لحياة العلم، والعلماء، وهي الحياة السياسية المليئة بالمؤامرات، والدسائس، والصراع على القوى، والنفوذ.

-ظل ابن يونس معظم سني حياته دؤوباً في طلب العلم ، حريصاً على تحصيله ، مجتهداً في لقاء العلماء، والإفادة منهم، فكان اهتمامه يتركز على طلب العلوم الشرعية، ثم علوم اللغة العربية، ثم بقية العلوم الأخرى.

-على الرغم من المسؤوليات السياسية، والإدارية الجسيمة التي كلف بها خلال ربع قرن من الزمان قد أشغلته عن ممارسة العلم والدرس، إلا أن جميع المصادر التي تناولت شخصيته، ذكرت أنه من فقهاء عصره المعدودين.

-تبين لنا جهود ابن يونس في مناصرة أهل السنة، والحد من نشاط الحركات الفكرية الباطلة، فقد عقد محاكمة للركن عبدالسلام بتهمة الاشتغال بالعلوم العقلية، والفلسفية، كما حذر من الصوفية، وقبح أعمالهم البدعية، ونقدهم أبرز أعلامهم، كما كشف الرافضة، وفضح أمرهم، وتصادم مع أعيانهم.

-اتضح لنا في شخصية ابن يونس القوة، والشدة، والصرامة، ويظهر ذلك في ثباته أثناء القبض عليه من قبل السلاجقة، ومجابهة الأمراء، والمتنفذين، ومحاربة الفساد الإداري، والمالي في الدولة.

- أن الوزير ابن يونس بالرغم من المهام الجسيمة التي أخذت حيزاً من جهده، ووقته، وتفكيره إلا أنه تعرض للنيل من منزلته من بعض المؤرخين، والواقع أنه كغيره من الوزراء الطموحين، أو العلماء المخلصين الذين عندما يصل الواحد منهم إلى درجة عالية من المنزلة الاجتماعية، تكثر حوله الوشايات والأحقاد.

المصادر والمراجع

المصادر:

[١] ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

- الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت، دار صادر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

[٢] الأيوبي، الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م)

- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

[٣] ابن تغري بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٣٨٣هـ/١٩٦٢م.

[٤] ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني الشافعي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)

- لسان الميزان، تحقيق: دائرة المعارف النظامية بالهند، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٥هـ/١٩٨٦م.

[٥] الحسيني، أبو الحسن صدر الدين علي بن ناصر(ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م)

- أخبار الدولة السلجوقية، زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

[٦] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)
- تاريخه المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.
- مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار القلم، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

[٧] ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)
- وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، لبنان، دار الثقافة، (د.ت).

[٨] ابن الدبيثي، أبو عبدالله محمد بن سعيد (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م)
- ذيل تاريخ مدينة السلام، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

[٩] ابن الدمياطي، أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسيني (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت).

[١٠] الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
- العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الكويت، المطبعة الحكومية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ الدبيثي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمرى، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

[١١] ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م)
- ذيل طبقات الحنابلة، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.
[١٢] ابن الساعي، علي بن أنجب بن عثمان البغدادي الشافعي (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م)
- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، الجزء التاسع، تحقيق: مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م.
[١٣] سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، وقائع سنة ٤٩٥ - ٦٥٤هـ/١١٠٢ -١٢٥٦م، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.
[١٤] السبكي، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)
- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
[١٥] السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد التميمي(ت٥٦٢هـ/١١٦٦م)
- الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
[١٦] أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، بيروت، دار الجيل، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
[١٧] الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
- الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

[١٨] طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفي (ت٩٦٨هـ/١٥٦٠م)
- مفتاح السعادة ومصباح السادة في موضوعات العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت).
[١٩] ابن طباطبا، محمد بن علي بن الطقطقي (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)
- الفخري في الآداب السلطانية، بيروت، دار صادر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
[٢٠] ابن عبدالبر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبدالبر القرطبي (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م)
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م
[٢١] ابن العبري، غريغوريوس بن هارون الملطى(ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
- تاريخ مختصر الدول، بيروت، دار الرائد اللبناني، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.
[٢٢] ابن أبي عذيبة، شهاب الدين أحمد بن محمد الشافعي(ت٨٥٦هـ/١٤٥٢م)
- إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، تحقيق: إحسان ذنون الثامري، ومحمد عبدالله القدحات، عمان، دار ورد الأردنية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.
[٢٣] العليمي، أبو اليمن عبدالرحمن بن محمد المقدسي الحنبلي (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م)
- المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، بيروت، دار صادر، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
[٢٤] العمري: أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري(ت ٧٤٩هـ)
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م
[٢٥] الغساني، الملك الأشرف أبو العباس إسماعيل بن العباس (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م)
- العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق: شاكر محمود عبدالمنعم، بغداد، دار البيان، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

[٢٦] أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)
- المختصر في أخبار البشر، مصر، المطبعة الحسينية، (د.ت).
[٢٧] ابن الفوطي، أبو الفضل عبدالرزاق بن أحمد الشيباني الحنبلي (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م)
- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق: مهدي النجم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
[٢٨] القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م)
- أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مصر، مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م.
[٢٩] القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)
- صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، تحقيق: عبد القادر زكار، دمشق، وزارة الثقافة، ١٤٠٠هـ/١٩٨١م.
[٣٠] الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
- فوات الوفيات، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت).
[٣١] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
- البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
[٣٢] ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله (ت٨٨٣هـ/١٤٧٨م)
- المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: عبد الرحمن سليمان العثيمين، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
[٣٣] ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م)
- لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

[٣٤] المنذري، زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبدالقوي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)
- التكملة لوفيات النقلة، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

[٣٥] ابن النجار، محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)
- ذيل تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت).

[٣٦] ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
- تاريخ ابن الوردي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

[٣٧] ياقوت، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٦م)
- معجم البلدان، بيروت، دار الفكر، (د.ت).

ثانياً: المراجع والابحاث

[٣٨] إبراهيم مصطفى وزملاؤه: المعجم الوسيط، تركيا، المكتبة الإسلامية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

[٣٩] بدري محمد فهد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٥٥٢ - ٦٥٦هـ/١١٥٧ -١٢٥٨م)، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٥٣هـ/ ١٩٧٣م.

[٤٠] بدري محمد فهد: الشهود العدول، بغداد، مجلة كلية الشريعة، العدد(٣)، عام ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

[٤١] خير الدين محمود الزركلي: الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

[٤٢] شفيق أحمد الندوي: أصول الفلسفة وعلم الكلام في ضوء العقيدة الإسلامية، الرياض، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

[٤٣] صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، بيروت، دار العلم للملايين، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

[٤٤] صادق حسن السوداني: الوظائف الإدارية في دولة الناصر لدين الله العباسي، بغداد، مجلة المورد، العدد (٢)، المجلد(٣)، عام ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م

[٤٥] عمر الدسوقي: إخوان الصفا، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

[٤٦] غالب عواجي: فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، مصر، دار لينة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

[٤٧] محمد صالح القزاز: الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير(٥١٢ - ٦٥٦هـ/١١١٨ -١٢٥٨م)، النجف، مطبعة القضاء، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

[٤٨] محمد مسفر الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية (٣٣٤ - ٥٩٠هـ/٩٤٦ -١١٩٤م) العهدان البويهي والسلجوقي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

[٤٩] ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، القاهرة، دار الشعب، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

Minister of the Abbasi Abu Muzaffar Obaidullah bin Younis Albaghdadi

Dr. Bader Thaar Alharbi
Assistant Professor in History and Civilization Department
Al-Imam Muhammad ibn Saud Islamic University

Abstract. This research deals with the biography of a man who was able to gradate the posts until he reached the highest degree in the social, political and intellectual ladder in the Abbasid state, namely the minister Abu al-Muzaffar Jalaluddin Obaidullah bin Yunus bin Ahmed Al-Azji Baghdadi Al-Hanbali one of the most prominent ministers of the Abbasid Caliphate during the sixth century AH, The ability and ability to manage the affairs of Iraq, and support the succession in the recovery of prestige.

I was encouraged to write in this subject that this character did not receive attention and study by researchers, this attempt came to highlight aspects of his biography and give it worthy of study and research for its outstanding performance in the management of governance in various fields and positions of responsibility in the difficult challenges that Facing Iraq and the Abbasid Caliphate.

The nature of the scientific material necessitated the division of research into several axes: name, descent, establishment, administrative positions and positions in the state, its participation in political life, its impact on the revitalization of scientific life, and discussion of his death and its causes.